تخاصم أهل النار
دراسة بلاغية فى القرآن الحكيم

الدكتور

إبراهيم حسن أحمد

مدرس البلاغة والنقد جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.....وبعد:

فإن القرآن الكريم "لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه[١]، أنزله ربنا على قلب عبده ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزة تتلى وبلاغة تروى، فأخرس به أصوات الشرك ونكس به أعلام الكفر وأذل به أعناق الجبابرة..، وجمع به شمل أمة كانت مشتتة فى بيداء الحياة، فإذا بها تغدو أمة مهابة الجانب عزيزة اللواء تدك صروح البغى وتثل عروش الظلم.

لقد راع العرب والناس جميعا من هذا القرآن بلاغته العالية التى تأخذ بمجامع القلوب، وهو فى مجموعه مكون من عبارات مادتها حروف وألفاظ، وهذا ما أثار عجبهم وهز أوتار قلوبهم وجعلهم يطلقون العنان للأقاويل الطائشة: فهو عندهم شعر، وقد يكون سحرا، وقد يكون كهانة، وهو أيضا عندهم ليس شعرا ولا سحرا ولا كهانة[٢] وهذا التخبط دليل العجز وفيه يكمن سر الإعجاز.

ومن هنا نشطت الأقلام وتبارت الأفهام لدراسة هذا الكتاب والوقوف على سر عظمته وإعجازه، فأحببت أن أسهم بجهد فى خدمة كتاب الله الكريم، وأن أتقرب إليه ـ تعالى ـ بأحب الأعمال لديه، فكلام الله ـ تعالى ـ : "هو الغنم الذى من حازه ظفرت يداه ولم

---

[١] جزء من حديث نبوى رواه الإمام على وأخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح، جـ٥، صـ١٥٩.

[٢] ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، مكتبة الرياض الحديثة، جـ١، صـ٢٦٢، ٢٤٣..

يجزع لفوت ما عداه"[٣]، "فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب، لا يستقصى معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق، فالسعيد من صرف همته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكره"[١].

من أجل هذا كله كان هذا الموضوع المتعلق ببلاغة القرآن الكريم (تخاصم أهل النار دراسة بلاغية فى القرآن الحكيم)، وأقول إضافة إلى ما ذكر: إن من دوافع اختيارى لهذا الموضوع ما أراه وأسمعه فى زماننا هذا من أفعال أعداء الإسلام سادة ولفيف، فهم يحاولون بشتى الطرق استتباع المسلمين وصرفهم عن منهج ربهم حتى تضيع هويتهم فينصرفوا لاهثين ـ وراءهم يتخذون من معتقداتهم قبلة لهم.

فها هى ذى أحوال الكافرين يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض، ويدعو بعضهم على بعض، ويلعن بعضهم بعضا، فهل فى هذا رادع لأهل الكفر والعدوان؟، وهل فى هذا زاجر لمن يريد أن يكون لهم تبعا؟

وتخاصم أهل النار وحجاجهم جاء متفرقا فى الكتاب الكريم، ويكثر فيه التنوع تبعا لتباين المواقف وتغاير الأحوال، فأردت أن أجمع هذه الآيات فى نسق واحد لعلى بذلك أستطيع أن أجلى شيئا من بلاغة الكتاب الكريم فى هذا الموضوع.

وقد توخيت فى هذا البحث منهجا فنيا تحليليا، فأسست العمل بتحليل بيانى دقيق لجزئيات كل سياق بعد الإحاطة بجوه العام ومدى ارتباطه بجو الحدث الأم ثم بجو سورته، وكيف عاونت الأدوات البيانية بألوانها وظلالها فى إبراز وإحياء معام الأحداث

---

[٣] الخطيب الإسكافى: درة التنزيل وغرة التأويل، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، صـ٨.

[١] الزركشى: البرهان، دار المعرفة، بيروت، جـ١، صـ٥.

والمواقف، ثم أظهرت كيف كان للنظرة الكلية دور فى اكتشاف الترابط والتكامل بين السياقات، ودور كل فى كشف أهمية إعادة التناول للمشهد، وحمله للجديد من الفوائد لتكملة صورة المشهد الكلى دون تكرار ممل أو سأم معيب، وقد رتبت مباحث الموضوع بحيث يسلم كل مبحث نفسه لأخيه ومجاوره تبعا لتتابع الأحداث.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتى فى مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة، أما المقدمة فتحدثت فيها عن الموضوع وأهميته وخطته ومنهجه، وأما المباحث فهى:

المبحث الأول : تبرؤ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا.

المبحث الثانى : تبادل التلاعن بين الضالين والمضلين.

المبحث الثالث : استغاثة الضعفاء بالذين استكبروا واستغاثة الفريقين بالشيطان.

المبحث الرابع : تبادل التهم بين الذين استضعفو والذين استكبروا.

المبحث الخامس : تبادل المساءلة بين الضالين والمضلين.

المبحث السادس : نفى الترحيب بين أهل النار.

المبحث السابع : تبادل الحجاج بين الضعفاء والذين استكبروا.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج.

والله ـ عز وجل ـ أسأل أن يكون عملى هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يلهمنا السداد والتوفيق فى القول والعمل إنه سميع قريب مجيب.

{ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [1]

الباحث

إبراهيم حسن أحمد

---

(١) (هود: من الآية ٨٨)

المبحث الأول

تبرؤ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا

قال ـ تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ }[1] .

تصور الآيات الكريمة موقفين من مواقف المشركين، أحدهما: دنيوى يتميز بالحب والاتباع والطاعة، وثانيهما: أخروى يتميز بالكراهية والتبرؤ والخصام، ويا للمفارقة ألتى تثير الدهشة والعجب من هذا الحب الدنيوى الذى ينقلب فى الآخرة إلي كراهية وتبرؤ، وسرعان ما يزول العجب وتذهب الدهشة إذا علمنا أن هذا الحب الدنيوى كان لغير الله ـ تعالى ـ وكان مبناه على الكفر والطغيان، وفيه محاربة لحزب الله ـ تعالى ـ فلا شك أنه حب يبوء بالانقطاع ويتحول إلي تبرؤ وبغض وكراهية.

ومطلع الآيات جاء بهذا الخبر المقدم (ومن الناس) وفى تقديمه تنبيه للسامع على عجيب ما سيذكر من شأنهم، وتشويق لمعرفة ما يتم به الإخبار، وإشارة إلي أن المتحدث عنهم ستساق فى شأنهم قصة مذمومة وحالة شنيعة فيها ما فيها من تحقير أمر المشركين، وذم ما اجتمعوا عليه من اتخاذ الأنداد من دون الله، وما يؤول إليه أمرهم من التخاصم والتبرؤ.[2]

---

(١) البقرة : ١٦٥-١٦٧.

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١، صـ٢٦٠.

ولا يخفى ما فى تعريف المسند إليه (من يتخذ) بالموصولية من قصد إلي إخفاء اسم المتحدث عنهم لأن الحديث يكسب ذما ونقصانا وفى هذا ترغيب فى هدايتهم واستمالتهم نحو الحق والهدى

والند: المثل والنظير، والجمع أنداد، والأصنام: الأنداد وهو مِثل الشيء، الذى يضاده فى أموره وينادده ، أى: يخالفه[١] والأنداد: الأمثال فى الألوهية والطاعة، والمراد بها "لأصنام، وقيل: الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم"[٢] ،والمعنى: "(ومن الناس من يتخذ) متجاوزين الإله الواحد التى ذكرت شئونه الجميلة أمثالا فلا يقصرون الطاعة عليه ـ سبحانه ـ بل يشاركونهم إياه"[٣]، وإيثار الاسم الجليل (الله) بالذكر فيه تشنيع لهم على هذا الاتخاذ الضال عن الحق والرشاد، بوصفه تجاوزا عن طاعة من يستحق الطاعة؛ لتفرده بالقدرة والجلال إلي من لا يستحقها، ويقول أبو السعود: " إيثار الاسم الجليل؛ لتعينه ـ تعالى ـ بالذات عقب تعينه بالصفات "[٤]

والمراد بالمحبة فى قوله ـ تعالى ـ: (يحبونهم كحب الله): التعظيم والطاعة والخضوع، يقول الرازى: " ليس المراد محبة ذاتهم فلا بد من محذوف، والمراد: يحبون عبادتهم أو التقرب إليهم والانقياد لهم أو جميع ذلك "[٥]، "والمعنى على تشبيه محبوبية الأنداد من جهة المشركين بمحبوبيته ـ تعالى ـ من جهة المؤمنين ولا ينافى ذلك قوله

---

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ندد)، جـ٣، صـ٤٢٠.

(٣) الكشاف: جـ١ ، صـ٢١١.

(٤) روح المعانى جـ٢ صـ٥١.

(٥) إرشاد العقل السليم : جـ١ صـ٢١٩.

(١) مفاتيح الغيب جـ٢ ، صـ٦١٦، دار الغد العربى.

ـ تعالى ـ: (والذين آمنوا أشد حبا لله) لأن التشبيه وقع بين المحبوبيتين لكن باعتبار رسوخ إحداهما دون الأخرى، فإن المراد بشدة محبة المؤمنين: شدتها فى المحل وهو رسوخها فيهم وعدم زوالها عنهم بحال لا كمحبة المشركين لآلهتهم حيث يعدلون عنها إلى الله ـ تعالى ـ عند الشدائد ويتبرءون منها عند معاينة الأهوال ويعبدون الصنم زمانا ثم يتركونه إلى غيره وربما أكلوه كما يحكى أن باهلة كانت لها أصنام من حيس[1] فجاعوا فى قحط أصابهم فأكلوها"[2] .

وفصلت جملة(يحبونهم كحب الله) عما قبلها؛ لتنزيلها منها منزلة بدل الاشتمال؛لأن اتخاذ الأنداد يشتمل على المحبة والاتباع، وإضافة(حب) إلى اسم الجلالة من الإضافة إلى المفعول فهو بمنزلة الفعل المبنى إلى المجهول، والكلام مبنى على حذف المضاف إليه والتقدير: يحبون أندادهم كحب المؤمنين لله، وحذف المضاف إليه يشير إلى وضوحه وظهوره ظهورا بينا إذ إن حب المؤمنين لله ـ تعالى ـ أبين من أن يخفى، يقول الزمخشرى"وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس"[3]، ويقول ابن عاشور: "وأعلم أن المراد: إنكار محبتهم الأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحب الله ـ تعالى ـ وإنما قيدت بمماثلة محبة الله؛ لتشويهها وللنداء على انحطاط عقول أصحابها "[4]، ولنا أن نلحظ فى المضارع (يتخذ ـ يحبونهم) معنى التجدد والاستمرار وأن أهل

---

(٢) الحيس: الخلط. والحيس: الأقط يخلط بالتمر والسمن، وحيسه: خلطه واتخذه لسان العرب: مادة (حيس)، جـ٦، صـ٦١.

(٣) روح المعانى: جـ٢، صـ٥٢.

(٤) الكشاف جـ ١،صـ٢١١.

(١) التحرير والتنوير، جـ٢، صـ ٩١.

الشرك موجودون فى كل مكان يتبع بعضهم بعضا، ولا يفيقون من شركهم وضلالهم إلا عند رؤية العذاب الأخروى.

(ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب)، و(لو) شرطية والذين ظلموا: هم متخذو الأنداد، وعرفوا بالموصولية تنبيها على خطئهم، وفى الموصول وصلته إشعار بسبب رؤيتهم العذاب وما سيحل بهم من الندم والحسرة والتخاصم، وجواب(لو) حذف؛ قصدا لتفخيم الأمر وتهويله؛ لكى تذهب النفس فى تقديره كل مذهب، يقول أبو السعود: "وجواب(لو) محذوف؛ للإيذان بخروجه عن دائرة البيان، إما لعدم الإحاطة بكنهه، وإما لضيق العبارة عنه، وإما لإيجاب ذكره مالا يستطيعه المعبر أوالمستمع مع الضجر والتفجع عليه، أى: لو علموا إذ رأوا العذاب قد حل بهم ولم ينقذهم منه أحد من أندادهم أن القوة لله جميعا ولا دخل لأحد فى شىء أصلا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد يوصف"[1]، ويقول المرزوقى: "حَذف الجواب فى مثل هاته المواضع أبلغ وأدل على المراد بدليل أن السيد إذا قال لعبده: لئن قمت إليك ثم سكت تزاحم على العبد من الظنون المعترضة من التوعد مالا يتزاحم لو نص على ضرب من العذاب"[2].

"وقرىء (ولو ترى) بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب"[3] وهذا ينبئ بأن الأمر من الوضوح بمكان وأن حال المشركين وما هم فيه قد بلغ من الظهور لأهل المحشر مبلغا يمتنع خفاؤه فلا يختص به راء دون آخر، ولا يخفى ما يفيده حذف جواب (لو)

---

(٢) إرشاد العقل السليم جـ١ ،صـ٢٢١، ينظر: مفاتيح الغيب جـ٢ ،صـ٦٢٣.

(٣) التحرير والتنوير جـ٢ ،صـ٩٤.

(١) الكشاف جـ١ ،صـ٢١٢.

من شدة هذه الحال وفظاعتها، كما لا يخفى ما يريده النظم القرآني من التنفير والتحذير من صنيع متخذى الأنداد الذى أدى بهم إلى تلك الحال المخزية[١] .

وأكد قوله: (أن القوة لله جميعا) بـ(أن) تلاؤما مع حال متخذى الأنداد الذين يثبتون لأندادهم قوة أو الرؤساء الذين يثبتون لأنفسهم قوة، كما أكد المسند إليه (القوة) بالتوكيد المعنوى (جميعا)[٣]؛ لغرض بلاغى هو دفع توهم عدم الشمول، فالقوة كلها لله ـ عز وجل ـ ولا اعتداد لأى قوة بجوار قوته ـ تعالى ـ، يقول الزمخشرى: "لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القوة كلها لله على كل شىء من العقاب والثواب دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة"[٤] .

وفائدة قوله ـ تعالى ـ (وأن الله شديد العذاب): "المبالغة فى تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإن اختصاص (القوة) به ـ تعالى ـ لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه"[٥] .

وتصور لنا الآية الكريمة (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) ما يحدث يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين فى حال رؤيتهم العذاب وهى حال فظيعة تشتمل على حالة شنيعة هى تخاذلهم وتبرُّؤ بعضهم من بعض وتقطع الوُصل التى كانت بينهم فى الدنيا من الأنساب والحب والدين والتبعية، وتلك

---

(٢) ينظر: علم المعانى د/ فيود جـ١،صـ١١٤.

(٣) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ت / محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة التراث، جـ٣، صـ٢٠٧.

(٤) الكشاف: جـ١، صـ٢١٢، ٢١١.

(٥) روح المعانى جـ٢،صـ٥٣.

حالة فظيعة تصور تخاذل المتبوعين وتنصلهم من مواعيد نفعهم التى وعدوا بها التابعين، يقول ابن عاشور: " وجملة (ورأوا العذاب) حالية، أى: تبرءوا فى حال رؤيتهم العذاب.....وموقع الحال هنا حسن جدا، وهى مغنية عن الاستئناف الذى يقتضه المقام؛ لأن السامع يتساءل عن موجب هذا التبرؤ فانه غريب فيقال: رأوا العذاب، فلما أُريد تصويرالحال وتهويل الاستفظاع عدل عن الاستئناف إلى الحال قضاء لحق التهويل واكتفاء بالحال عن الاستئناف "[1]

والأسباب: جمع سبب، وهو الحبل مطلقا، أو الحبل الذى يتوصل به إلى الماء، أو الحبل الذى أحد طرفيه متعلق بالسقف، أو الحبل الذى يرتقى به النخل[2] "وقوله: (وتقطعت بهم الأسباب) تمثيلية، شبهت هيأتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذى تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبّانه فى ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليجتنى الثمر الذى كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علم كلهم حينئذ أن لا نجاة لهم فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة وهى تمثيلية بديعة؛ لأن الهيئة المشبهة تشتمل على سبعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التى تشتمل عليها الهيئة المشبه بها وهى تشبيه المشرك فى عبادته الأصنام واتباع دينها بالمرتقى بجامع السعى، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة فى أعلى النخلة لأنها لا يصل اليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر، وتشبيه العمر بالنخلة فى الطول، وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم بتقطع الحبل، وتشبيه الخيبة بالبعد عن

---

(١) التحرير والتنويرجـ٢، صـ٩٧.

(٢) لسان العرب مادة(سبب)جـ١، صـ٤٥٨.

الثمرة، وتشبيه الوقوع فى العذاب بالسقوط المهلك، وقلما تأتى فى التمثيلية صلوحية أجزاء التشبيه المركب فيها لأن تكون تشبيهات مستقلة، والوارد فى ذلك يكون فى أشياء قليلة كقول بشار الذى يعد مثالا فى الحسن:

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ليس فى البيت أكثر من تشبيهات ثلاثة فالباء فى(بهم) للملابسة، أى: تقطعت الأسباب ملتبسة بهم، أى: فسقطوا، وهذا المعنى هو محل التشبيه، لأن الحبل لو تقطع غير ملابس للمرتقى عليه لما كان فى ذلك ضر إذ يلصق بالنخلة ويتطلب سببا آخرينزل فيه، ولذلك لم يقل: وتقطعت أسبابهم أو نحوه"[1]

وفى هول هذه الأحداث الفظيعة من رؤية العذاب، وتنصل الرؤساء المتبوعين من التابعين وتخاصمهم وتقطع ما بينهم من وصل كانت فى الدنيا، فى هول هذه الأحداث يطلب التابعون مالا يمكن بحال وهو تمنى الرجوع الى الدنيا، قال ـ تعالى ـ : (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا)، يقول الزمخشرى: "(لو) فى معنى التمنى؛ ولذلك أجيب بالفاء الذى يجاب به التمنى، كأنه قيل: ليت لنا كرة فنتبرأ منهم"[2].

والآية تصور حسرة التابعين وندمهم حيث" تمنوا الرجوع الى الدنيا حتى يطيعوا الله ـ تعالى ـ فيتبرءوا من متبوعيهم فى الآخرة إذا حشروا جميعا مثل تبرؤ المتبوعين منهم مجازاة لهم بمثل صنيعهم"[3]، ويقول ابن عاشور: " تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا بعد ما علموا الحقيقة وانكشف لهم سوء صنيعهم، فيدعوهم الرؤساء الى دينهم فلا يجيبوهم؛

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢،صـ٩٧.

(٢) الكشاف جـ١، صـ٢١٢، وينظر: التحرير والتنوير، جـ٢،صـ٩٨..

(٢) روح المعانى جـ٢،صـ٥٤.

ليشفوا غيظهم من رؤسائهم الذين خذلوهم، ولتحصل للرؤساء خيبة وانكسار كما خيبوهم فى الآخرة، فان قلت: هم إذا رجعوا رجعوا جميعا عالمين بالحق فلا يدعوهم الرؤساء إلى عبادة الأوثان حتى يمتنعوا من إجابتهم، قلت: باب التمنى واسع، فالأتباع تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا عالمين بالحق ويعود المتبوعون فى ضلالهم السابق [1]

وسياق الآية ينبىء بازدياد المتمنى بـ(لو) بعدا واستحالة، فقد وقع هذا التمنى بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم من حلوله بهم، وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا، ويرجع ازدياد المتمنى بـ(لو) بعدا واستحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هى حرف امتناع لامتناع، وقد جاءت فى تمنى التابعين بدلا من (ليت) لتعكس إحساسهم بواقعهم الأليم فتصبغ أمنيتهم بمشاعر اليأس من تحقيقها. إنهم يرغبون فى الرجوع إلى الدنيا ليتبرءوا من الرؤساء كما تبرءوا منهم مجازاة لهم على إخلافهم وعدم نفعهم، وأنى لهم ذلك؟

وجملة(كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم): تذييل جئ به لتأكيد الوعيد وبيان حال المشركين فى الآخرة، والإشارة للاراءة المأخوذة من (يريهم) والمعنى: "أن الله يريهم عواقب أعمالهم إراء مثل هذا الإراء، إذ لا يكون إراء لأعمالهم أوقع منه، فهو تشبيه الشيء بنفسه باختلاف الاعتبار كأنه يرام أن يريهم أعمالهم فى كيفية شنيعة فلم يوجد أشنع من هذه الحالة "[2].

والحسرات جمع حسرة، وهى حزن وندم وتلهف لما فات وقته، "واشتقاقها من الحسر وهو الكشف؛ لأن الكشف عن الواقع هو سبب الندامة على ما فات من عدم الحيطة

---

(٣) التحرير والتنويرجـ٢،صـ٩٨.

(١) التحرير والتنويرجـ٢،صـ١٠٠.

له"[١]، يقول الزمخشرى: "أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم"[٢]

ولنمعن النظر فى قوله ـ تعالى ـ (وما هم بخارجين من النار) وهو تعبير بالجملة الاسمية عدل إليه عن أن يقال: وما يخرجون من النار؛ لإفادة دوام بقائهم فى النار واستمراره، لقد تمنوا رجوعا إلى الدنيا فأخبروا بدوام البقاء واستمرار العذاب وفى هذا إشارة إلى أن تمنيهم الرجوع وتنصل رؤسائهم من نفعهم لا يزدهم إلا حسرات وندامات؛ لأنهم باقون فى النار مستمرون فى العذاب.

وقد أشار الزمخشرى إلى أن تقديم المسند إليه لا يفيد الحصر وإنما يفيد التوكيد وتقوية الحكم فقال: "(هم) بمنزلته فى قوله: (هم يفرشون اللبد كل طِمِرّة)، فى دلالته على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لاعلى الاختصاص"[٣] وتعقبه ابن المنير قائلا: "لما استشعر دلالة الآية لأهل السنة على أنه لا يخلد فى النار إلا الكافر، وأما العاصى ـ وإن أصر على الكبائر ـ فتوحيده يخرجه منها ولابد وفاء بالوعد، ووجه الدلالة منها على ذلك أنه صدر الجملة بضمير المبتدأ ومثل هذا النظم يقتضى الاختصاص والحصر لغة وسترى للزمخشرى مواضع يستدل فيها على الحصر بذلك .....فإذا ابتنى الأمر على ذلك لزم حصر نفى الخروج من النار فى هؤلاء الكفار دون غيرهم من الموحدين لكن الزمخشرى يأبى ذلك، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة بفائدة تتم له على القاعدة فيجعل الضمير المذكور يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم لاختصاصه بهم وهم عنده بهذه المثابة؛ لأن العصاة وإن خلدوا على زعمه إلا أن الكفار أحق بالخلود وأدخل فى استحقاقه منهم، فسبحان من امتحنه بهذه المحنة على حذقه وفطنته"[٤]

---

(٢) التحرير والتنوير جـ٢،صـ١٠٠.

(٣) الكشاف جـ١وصـ٢١٢.

(٤) الكشاف جـ١ ، صـ٢١٢.

(١) الانتصاف لابن المنير جـ١ ،صـ٢١٢.

وقد دافع الألوسى عن الزمخشرى مؤيدا القول بأن تقديم المسند إليه (وما هم بخارجين من النار) يفيد التأكيد وتقوية الحكم وليس الحصر، ومشيرا إلى أن القول بعدم الحصر ليس نصا فى الاعتزال[١]، وقد سار على هذا الدرب سماحة الشيخ الطاهر ابن عاشور فقال: "ليس لتقديم المسند إليه هنا نكته إلا أنه الأصل فى التعبير بالجملة الاسمية فى مثل هذا؛ إذ لا تتأتى بسوى هذا التقديم فليس فى التقديم دلالة على اختصاص؛ لما علمت، ولأن التقديم على المسند المشتق لا يفيد الاختصاص عند جمهور أئمة المعانى بل الاختصاص مفروض فى تقديمه على المسند الفعلى خاصة، ولأجل ذلك صرح صاحب الكشاف تبعا للشيخ عبد القاهر بأن موقع الضمير هنا كموقعة فى قول المعذل البكرى :

هم يفرشون اللبد كل طمرّة وأجرد سبّاق يبذ المغاليا

فى دلالته على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص، وادعى صاحب المفتاح أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق قد يفيد الاختصاص كقوله ـ تعالى ـ { وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [٢] { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا }[٣] { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ }[٤] فالوجه أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق لا يفيد بذاته التخصيص، وقد يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن، وليس فى قوله ـ تعالى ـ :(وما هم بخارجين من النار) ما يفيد التخصيص ولا ما يدعو إليه"[٥].

---

(٢) ينظر: روح المعانى جـ٢، صـ٥٦.

(٢) هود: ٩١.

(٣) هود: ٢٩.

(٤) الشورى: ٦.

(٥) التحرير والتنوير: جـ٢، صـ١٠٠,١٠١.

والذى أراه أن السياق هو الذى يحدد الإفادة فى تقديم المسند إليه المنفى على المسند المشتق ففى قوله ـ تعالى ـ : (وما هم بخارجين من النار) أفاد الاختصاص، حيث إن الخروج من النار منفى عن المسند إليه المقدم (هم) العائد إلى الكفار بجميع طوائفهم الذين تبرأ بعضهم من بعض ومثبت لغيرهم وهم عصاة المؤمنين؛ لأن المؤمن العاصى لا يخلد فى النار، وسياق الآيات يشير إلى تتابع الحسرات على المشركين بإخبارهم بما يحدث لهم بما فيه مزيد ندمهم وفجيعتهم ومن هذه الأخبار: اختصاصهم بالخلود فى النار دون غيرهم من عصاة المؤمنين، وأن بقاءهم وحدهم فى النار بعد خروج العصاة المؤمنين منها مما يزيدهم حسرة إلي حسرتهم وندما على ندمهم، وهذا ما يفيده ترتيب الخبر فى الآية من تقديم المسند إليه المنفى على الخبر المشتق.

وبعد: فقد صورت لنا آيات سورة البقرة مشهدا أخرويا يبدو فيه الخصام شديدا بين التابعين والمتبوعين، فالتابعون قد سمعوا فى دنياهم من رؤسائهم وعودا كثيرة بحمل تبعتهم وخطاياهم، وهاهم أولاء يرون أهوال القيامة رأى العين ويرون تنصل المتبوعين من وعودهم وبراءتهم من متبوعيهم، ووصل الخصام بين الفريقين إلي أقصاه بتقطع ما بين الفريقين من أسباب ووصل كانت بينهم، ولم يجد التابعون فى جعبتهم إلا سهما واحدا غير مرجو النفاذ وهو: تمنى الرجوع إلي الدنيا؛ ليخيبوا آمال المتبوعين كما خيبوا آمالهم فى هذا الموقف، وهيهات هيهات أن يتحقق لهم ما تمنوا فليس لديهم إلا الندم والتحسر على ما فرطوا فى دنياهم، وقد عبر النظم القرآنى عن هذا الخصام بكلمات موحية معبرة فى نظم دقيق معجز.

المبحث الثانى
تبادل التلاعن بين الضالين والمضلين

قال ـ تعالى ـ : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ }[1] .

إذا كانت سورة البقرة قد صورت لنا موقف التبرؤ بين التابعين والمتبوعين فهذه الآيات الكريمة من سورة الأعراف تصور موقفا آخر من مواقف أهل النار يتنامى فيه الخصام بين الرؤساء والأتباع حيث تتعالى الأصوات بين الفريقين بالسباب والتلاعن وتبادل الاتهامات فالأتباع ينسبون تهمة إضلالهم إلي الرؤساء، ويطلبون مضاعفة العذاب لهم، والرؤساء يتنصلون من هذه التهمة ويأمرون الأتباع بتذوق العذاب بما كسبت أيديهم، والآيات تتناول تلك الصور فى أبدع نظم وأبينه.

تبدأ الآيات الكريمة بهذا الاستفهام (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) وقد أفاد الاستفهام النفى المشوب بالتحذير والتوعد والإنكار والتهديد لمن يفترى على الله كذبا أو يكذب بآياته، والتقدير: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا أوكذب

---

(١) الأعراف: ٣٦ـ ٣٩.

بآياته، وبتأمل النفى الذى يفيده هذا التقدير، والنفى المفاد من الاستفهام فى الآية الكريمة نجد أن الاستفهام فيه حمل للمخاطب على الإقرار بالنفى بتحريك فكره وإثارة أحاسيسه ليتأمل الأجناس ويفتش فى الصفات لعله يجد من يكون أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته، وعندما لا يجد من يبحث عنه يكون ذلك حاملا له على الإقرار بالنفى، وهذا أقوى فى الدلالة على النفى من إفادته بالأدوات الموضوعة له[١]،

يقول الزمخشرى: "فمن أشنع ظلما ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله"[٢]، والدلالة على النفى بالاستفهام فى الآية الكريمة يمتاز على الدلالة عليه بطريق النفى الصريح، إذ النفى الصريح خال من التحريك والتنبيه وإثارة المشاعر، أما الاستفهام ففيه تنبيه لعقل المخاطب وإثارة له كى يتأمل ويتدبر ويعيد النظر فيما يفعل أو يعتقد لعله يزعن للحق ويقلع عن الباطل والضلال.

وأرى فى الاستفهام إضافة لمعنى النفى والإنكار أرى فيه معنى التهويل واضحا فليس هناك من هو أخطأ فعلا وأجهل قولا وأبعد ذهابا عن الحق والصواب ممن تقول على الله كذبا أو كذب برسالته، فأى ظلم أشنع من الافتراء على الله ـ تعالى ـ والتكذيب بآياته، يقول ابن عاشور: "و (من) استفهام إنكاري مستعمل فى تهويل ظلم هذا الفريق...، وإنما كانوا أظلم الناس ولم يكن أحد أظلم منهم لأن الظلم: اعتداء على حق وأعظم الحقوق هى حقوق الله ـ تعالى ـ"[٣].

---

(١) ينظر: د/ بسيونى فيود، أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم، رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة، تحت رقم (٢٠٣٣)، صـ١٩١، ١٩٠.

(٢) الكشاف، جـ٢، صـ١٠٢.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٨، صـ١١٢.

وعُرِّفوا باسم الإشارة فى قوله: (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب)؛ دلالة على أن المشار إليهم أحرياء بالوعيد مستحقون لما يصيبهم من العذاب جزاء لتلك المعانى الخبيثة المنسوبة إليهم وهى التقول على الله وتكذيب آياته، يقول الألوسى: "(أولئك) إشارة إلي الموصول، والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد فى الضمير المستكن فى الفعلين باعتبار اللفظ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بتماديهم فى سوء الحال، أى: أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب"[1]، والنصيب من الكتاب هو: "ما قدر من العذاب"[2]

و(حتى) فى قوله ـ تعالى ـ :(حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله؟) "ابتدائية تدل على أن مضمون الكلام الذى بعدها أهم بالاعتناء للإلقاء عند المتكلم لأنه أجدى فى الغرض المسوق له الكلام، وهذا الكلام الواقع هنا بعد (حتى) فيه تهويل ما يصيبهم عند قبض أرواحهم وهو أدخل فى تهديدهم وترويعهم وموعظتهم من الوعيد المتعارف، وقد هدد القرآن المشركين بشدائد الموت عليهم فى آيات كثيرة لأنهم كانوا يرهبونه، والرسل هم الملائكة...، والتوفى نزع الروح من الجسد"[3]

والاستفهام فى قوله: (أين ما كنتم تدعون من دون الله) أريد به توبيخ الظالمين وتبكيتهم وتقريعهم "أى: أين الآلهة التى كنتم تعبدونها ليكونوا لكم شفعاء فلا نراهم يخلصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد"[4]

---

(١) روح المعانى: جـ٨، صـ١٧٠,١٧١.

(٢) روح المعانى جـ٨، صـ١٧١.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٨، صـ١١٧.

(٤) تفسير القاسمى جـ٥،صـ٥٥.

ويبدو فى الاستفهام معنى التأييس بما فيه من زيادة الكرب والهم وأن الاستفهام يزيد الظالمين غما إلي غمهم وكربا على كربهم، وهذه الشدائد التى يصورها الاستفهام والنظم الكريم ماهى إلا ذكرى لمن كان له عقل يتدبر الأمور ويأخذ بالأسباب المنجيات

ويبدو فى جواب الظالمين على استفهام الملائكة أنهم لم ينكروا أنهم كانوا يدعونهم من دون الله، لأنهم قالوا(ضلوا عنا) أى: غابوا لا ندرى أين مكانهم، وشهادتهم على أنفسهم أنهم كانوا فى الدنيا عابدين لما لايستحق العبادة "شهادة ضمنية لأنهم لما لم ينفوا أن يكونوا يدعون من دون الله وأجابوا بأنهم ضلوا عنهم قد اعترفوا بأنهم عبدوهم"[1]، وهذا القول من الكافرين "إنما هو للتحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران، ولا تعارض بين ما فى الآية وقوله ـ تعالى ـ: { وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ }[2]، لأن الطوائف مختلفة أو المواقف عديدة أو الأحوال شتى"[3].

وبعد هذا الحوار الذى دار بين الظالمين والملائكة وانتهى بمزيد من الخيبة والخسران للظالمين وشهادتهم على أنفسهم بالكفر يأتى قوله ـ تعالى ـ :(قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار)، ولا يخفى ما وراء أسلوب الأمر (ادخلوا فى أمم) من الإهانة والتحقير والتهكم والسخرية بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق فافتروا على الله كذبا وكذبوا أقواله، و(فى) بمعنى: مع، أى ادخلوا مع أمم[4] ويقول ابن عاشور "و(فى) من قوله: (فى أمم) للظرفية المجازية، وهى كونهم فى حالة واحدة وحكم واحد سواء دخلوا النار فى وسطهم أم دخلوا قبلهم أو بعدهم وهى بمعنى (مع) فى تفسير

---

(١) التحرير والتنوير جـ٨،صـ١١٨.

(٢) الأنعام: ٢٣.

(٣) روح المعانى جـ٨،صـ١٧٢.

(٥) ينظر: الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى صـ٢٥٠.

المعنى"[١]، و(قد خلت من قبلكم من الجن والإنس) "يعنى كفار الأمم من النوعين وقدم الجن؛ لمزيد شرهم"[٢] .

ولننظر إلي هذا التصوير البديع لأحوال التابعين والمتبوعين عندما ينفذون ما أمروا به من دخول النار: (كلما دخلت أمة لعنت أختها) إنهم يتلاعنون ويسب بعضهم بعضا ويشتم بعضهم بعضا ويدعو بعضهم على بعض، فيلعن الأتباع الرؤساء يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله، وتلك حال فظيعة تضاف إلي فظاعة النار وهولها، و(ما) فى قوله: (كلما) "ظرفية مصدرية، أى: كل وقت دخول أمة لعنت أختها، والتقدير: لعنت كل أمة منهم أختها فى كل أوقات دخول الأمة منهم، فتفيد عموم الأزمنة، و(أمة) نكرة وقعت فى حيز عموم الأزمنة، فتفيد العموم ، أى كل أمة دخلت، وكذلك (أختها) نكرة؛ لأنه مضاف إلي ضمير نكرة فلا يتعرف فتفيد العموم أيضا، أى: كل أمة تدخل تلعن كل أخت لها "[٣] .

ولم يقتصر تخاصم أهل النار على التلاعن عند دخول النار، وإنما يأخذ التخاصم منحى آخر عندما يتلاحقون مجتمعين فى النار حيث يتبادلون التهم فيما بينهم ويطلب بعضهم لبعض مضاعفة العذاب وهذا ما جاء فى قوله ـ تعالى ـ مخبرا عن أحوالهم: (حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) وأصل (اداركوا) تداركوا، أى: تلاحقوا، واللفظ يصور تسارعهم فى دخول النار وهو تسارع من أثر سوق الملائكة لهم لقوله ـ تعالى ـ :{ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى

---

(١) التحرير والتنوير جـ٨،صـ١١٩.

(٢) روح المعانى جـ٨،صـ١٧٢.

(٣) التحرير والتنوير جـ٨،صـ١٢٠.

جَهَنَّمَ وِرْدًا } [١] فهم يدخلون فوجا فوجا لاعنا بعضهم بعضا إلي انتهاء تلاحقهم باجتماعهم فى النار والمراد بـ (أخراهم): أخراهم فى الرتبة وهم الأتباع من كل أمة، والمراد بالأولى: الأولى فى المرتبة وهم القادة والمتبوعون، أو قالت أخراهم دخولا لأولاهم دخولا [٢] ولا تنافى بين المعنيين فيجوز أن يكون القادة هم أولهم دخولا لعظيم جرمهم، وتعريفهم بهاتين الصفتين(أخراهم، أولاهم) فيه قصد إلي إهانتهم وتحقيرهم لارتباطه بدخول النار، يقول القاسمى: "قالت أخراهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون لأنهم أشد جرما من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلي الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل"[٣] ولا يخفى سر الطباق بين (أولاهم) و(أخراهم) وما فيه من استيعاب النار لأمم الضلال كلها من أولهم حتى آخرهم .

ولنتأمل ما نطق به الأتباع: (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) إنهم ينسبون تهمة إضلالهم إلي القادة، ويطلبون مضاعفة العذاب لهم جزاء لضلالهم وإضلالهم، وكلمة (ربنا) منادى حذفت أداته تقربا إلي الله ـ تعالى ـ وبخاصة أنهم نادوه بصفة الربوبية؛ استدرارا لكرمه وإحسانه وكأنهم يلتمسون عذرا عند ربهم بأنهم ما ضلوا من تلقاء أنفسهم وإنما أُضِلُّوا من قبل القادة، ونلمح فى اسم الإشارة (هؤلاء) المشار به إلي المضلين؛ تنبيها على حقارتهم وضعتهم فى نفوس الأتباع لأنهم تسببوا لهم فى هذا المآل ولم يحملوا عنهم أوزارهم كما وعدوهم.

أما الأمر فى قوله: (فآتهم عذابا ضعفا من النار) فقد أريد به الدعاء تنفيسا لهم عما يدور فى صدورهم من غيظ وحقد وكراهية لهؤلاء المضلين الذين أوردوهم ذلك المورد.

---

(١) مريم:٨٦.

(٢) ينظر: روح المعانى جـ٨،صـ١٧٣.

(٣) تفسير القاسمى جـ٥،صـ٥٥.

وضعف الشيء: مثلاه. والضعف فى كلام العرب على ضربين أحدهما: المثل، والآخر: أن يكون فى معنى تضعيف الشيء، وأضعف الشيء وضَعّفه وضاعَفَه: زاد على أصل الشيء وجعله مثليه أوأكثر[١]، إنهم يطلبون لهم مضاعفة العذاب لضلالهم وإضلالهم.

وقد جاء الرد على ما نطق به الأتباع فى قوله ـ تعالى ـ (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) "أما القادة فلضلالهم وإضلالهم وذلك سبب الدعاء السابق، وأما الأتباع فلذلك أيضا عند بعض، وكونهم ضالين ظاهر، وأما كونهم مضلين؛ فلأن اتخاذهم إياهم رؤساء يصدرون عن أمرهم يزيد فى طغيانهم ....والأولى أن يقال: إن ذلك فى الأتباع لكفرهم وتقليدهم ولا شك أن التقليد فى الضلال يستحق فاعله العذاب"[٢]

وقد أوردت الآيات رد القادة المتبوعين على تابعيهم فى قوله ـ تعالى ـ (وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) . ونلحظ فى هذا القول شماتة وتشفيا فى التابعين الذين طلبوا مضاعفة العذاب لقادتهم فإذا بالرد من الله ـ عز وجل ـ مخيبا لآمال التابعين حيث أخبرهم بأن لكل طائفة ضعف، أى زيادة عذاب ومن هنا فقد جاء جواب القادة مبنيا على تسوية الله لهم فى مضاعفة العذاب وكان قولهم: (فما كان لكم علينا من فضل) تشفيا فى التابعين، أى: ما كان لكم علينا من فضل بتخفيف العذاب، وقد سألتم الزيادة لنا فها نحن ذا قد تساوينا فى مضاعفة العذاب ولم تفضلونا بقلته .

ولم يكتف القادة بهذا التشفى من التابعين وهم فى مقام التخاصم بل أصدروا لهم هذا الأمر: (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وصيغة الأمر هنا مستعملة فى الإهانة

---

(١) لسان العرب: مادة (ضعف) جـ٩،صـ٢٠٤.

(٢) روح المعانى جـ ٨ ،صـ ١٧٤،١٧٣.

والتحقير والاستخفاف بالتابعين الذين طلبوا مضاعفة العذاب لقادتهم فكانت النتيجة أن ضوعف العذاب للفريقين ولم يحظ التابعون بقليل من التخفيف يتعالون به على القادة، فلا يخفى ما وراء أسلوب الأمر من الإهانة والتحقير والتهكم والاستهزاء بالتابعين وبخاصة أن المقام مقام عدم اعتداد بالمخاطب وقلة المبالاة به.

" والذوق: مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقا وذوَاقا ومذاقا، فالذوق والمذاق يكونان مصدرين ويكونان طعما. والذواق: هو المأكول والمشروب، وتذوقته: أى ذقته شيئا بعد شيء. والذوق يكون فيما يكره ويحمد"[١] .

والذوق فى اللغة هو وجود الطعم فى الفم، وهذا لا يكون إلا لما يشرب ـ وهو الأغلب ـ أو لما يؤكل، وليس العذاب بطعام ولا شراب، لذلك وجب الصرف عن الظاهر ليتبين المراد، وللصرف عن الظاهر ـ هنا ـ طريقتان: أما أولاهما: فتكون بصرف (الذوق) عن حقيقته اللغوية، فيكون استعارة للإحساس بالعذاب والجامع بين الذوق ـ المشبه به ـ وبين الإحساس ـ المشبه ـ هو شدة الإحساس أو قوة الوجدان، أو حصول المعرفة، ويكون التعبير عن هذه المعانى بالإذاقة إشارة إلي تمكن العذاب من الإنسان تمكنا جعله شديد الإحساس به يتذوقه تذوق الطعام والشراب وفى هذا ما فيه من شدة الايجاع، وهذا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وهى اقرب إلي بيان المراد من (الذوق)، أما الطريقة الثانية فهى جواز الحمل على الاستعارة المكنية، فيشبه العذاب ـ مثلا ـ بمطعوم أو مشروب، ثم يقدر المشبه به محذوفا ويكون الذوق الواقع على العذاب هو قرينة المكنية، ويكون المغزى البلاغى أن العذاب صار بمنزلة المطعوم والمشروب لهم: فى الملازمة والغدو والرواح فيه وفى المعاناة من شدة وطأته [٢]

---

(١) لسان العرب: مادة (ذوق) جـ١٠،صـ١١.

(٢) ينظر: د/ عبد العظيم المطعنى: دراسات جديدة فى إعجاز القرآن صـ٣٢٢,٣٢٣.

أما قولهم: (بما كنتم تكسبون) فهو إشارة إلي السببية، أى ذوقوا العذاب بسبب أعمالكم، فكفركم وضلالكم هو السبب فيما حل بكم لا نحن.

وبهذا ينتهى المشهد العدائى بين التابعين والمتبوعين الذى بدأ بالتلاعن فيما بينهم، وتبادل التهم والدعاء بمضاعفة العذاب ثم انتهى بتذوق العذاب والمعاناة من شدته ووطأته، وأرى أن نبرة التخاصم فى سورة الأعراف أشد وطأ وأقوى نبرة منها فى سورة البقرة، فموقف سورة البقرة يقوم على تبرؤ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، وتمنى التابعين أن لو ردوا إلى الدنيا، كى يخالفوا المستكبرين ولا يسيروا سيرهم، أما سورة الأعراف هنا فمشهد التخاصم يزداد حدة، فلا يتوقف على التبرؤ وإنما يتلاعنون فيسب بعضهم بعضا، ويتمنى المستضعفون للمستكبرين مضاعفة العذاب، وهذا تنامى طبيعى فى الأحاث التى تدور بين أهل النار يوم القيامة، وإن كان كل حدث يتناسب مع السورة التى ورد فيها.

وفى هذه الآيات ما يشير إلي أن الكفار وأهل الضلال وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالهم وتوادوا فى الدنيا فإنهم فى الآخرة يتلاعنون ويتخاصمون ويسألون العذاب لمن أضلهم، وفى الآيات أيضا ما يشير إلي أن الداعى إلي الضلال مضل وأن الضال ليس بعذر له إضلال غيره إياه، وأن اشتراكهم فى تذوق العذاب لا يوجب لهم راحة بخلاف الاشتراك فى محن الدنيا .

المبحث الثالث

استغاثة الضعفاء بالذين استكبروا واستغاثة الفريقين بالشيطان

قال ـ تعالى ـ : { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[1] .

تصور الآيات الكريمة جانبا من جوانب تخاصم أهل النار، حيث يستصرخ بعضهم ببعض، فالضعفاء يستنجدون بالذين استكبروا، فلا يغنون عنهم شيئا، والفريقان يستصرخون الشيطان فلا يصرخهم، وكل هذا يشير إلى شدة الهول وفظاعة الكرب، وهذا الحدث مترتب على سابقيه ترتيبا تصاعدياً، فإذا كان أهل النار فى سورة البقرة قد تبرأ بعضهم من بعض، وفى الأعراف ازدادت حدة تخاصمهم بلعن بعضهم بعضا، فإنهم هنا فى سورة إبراهيم قد تفاقمت عليهم الشدائد وطمت فأخذ الضعفاء يستصرخون بالذين استكبروا فما حملوا عنهم شيئا، واستصرخ الفريقان بالشيطان فما نالوا إلا الخيبة والخسران، ومشهد التخاصم هنا أشد من سابقيه، وهذا يتناسب مع سياق سورة إبراهيم.

والآيات الكريمة تبدأ بقوله ـ تعالى ـ :(وبرزوا لله جميعا)، والبَراز بالفتح: المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع، وإذا خرج الإنسان إلى ذلك الموضع قيل قد برز، والبَراز: الفضاء الواسع، وكل ما ظهر بعد خفاء قد برز، والبَرزة من النساء: الجليلة التى تظهر

---

(١) إبراهيم : ٢١,٢٢.

للناس ويجلس إليها القوم، وامرأة برزة: إذا كانت كهلة لا تحتجب احتجاب الشواب وهى مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم من البُروز وهو الظهور.[١]

والبروز فى الآية معناه: المثول بين يدى الله بعد البعث من القبور، يقول الزمخشرى: "ومعنى بروزهم لله ـ والله ـ تعالى ـ لا يتوارى عنه شىء حتى يبرز له ـ: إنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه"[٢] ولا يخفى ما فى مجىء البروز بصيغة الماضى، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ويبرزون لأن البروز سيكون مستقبلا يوم القيامة، فعدل عن المضارع إلي الماضى للتنبيه على تحقيق وقوعه لا محالة حتى كأنه قد وقع ومضى، يقول الزمخشرى: "وإنما جىء بلفظ الماضى؛ لأن ما أخبر به ـ عز وجل ـ لصدقه كأنه قد كان ووجد"[٣].

وتقييد البروز بـ(لله) لأنه ـ سبحانه ـ دعاهم دعوة من الأرض للحساب والجزاء، وقد أكد المسند إليه وهو الضمير المتصل فى (وبرزوا) بالتوكيد المعنوى (جميعا) لغرض بلاغى هو دفع توهم عدم الشمول، فالبروز سيكون لجميعهم تابعين ومتبوعين، ضعفاء ومستكبرين سادة ولفيف فالجميع سيمثل بين يدى الله ـ تعالى ـ للحساب حيث توفى كل نفس ما عملت .

وتبدأ الخصومة بين التابعين فى الضلال والمتبوعين فيه وقد قضى الله ـ عز وجل ـ على التابع والمتبوع بالإلقاء فى نار جهنم، فيتوسل التابعون إلي المتبوعين بما كانت

---

(١) لسان العرب: مادة(بروز) جـ٥،صـ٣٠٩,٣١٠.

(٢) الكشاف: جـ٢، صـ٥٤٨.

(٣) الكشاف: جـ٢، صـ٥٤٨.

بينهم من علاقات فى الحياة الدنيا لكى يتحملوا عنهم شيئا من عذاب الله (فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء)؟

والضعفاء: جمع ضعيف، والمراد بهم: ضعاف الرأى وهم الأتباع والعوام[١]، "والذين استكبروا: سادتهم وكبراؤهم الذين استتبعوهم واستغووهم وصدوهم عن الاستماع إلي الأنبياء واتِّباعهم"[٢]، وبين (الضعفاء) و(الذين استكبروا) طباق معنوى وهو الجمع بين أمر وما يتعلق بمقابله[٣]، فقد جمع بين الضَّعف وما يتعلق بالقوة وهو الاستكبار، إذ الاستكبار يستلزم القوة المضادة للضعف، وقد وقع الطباق موقعه من البلاغة ومطابقة مقتضى الحال لا تحسينا للمعنى بعد الوفاء به قبل الطباق، فضعف الرأى واتباع المضلين أمر غير محمود، والقوة التى هى ضد الضعف قد تورث تواضعا وتوجه للصلاح والإصلاح، وقد تورث تكبرا وتوجه لإضلال الآخرين واستتباعهم، ومن هنا أوثر التعبير بالذين استكبروا دون الأقوياء فى مقام ذم المستكبرين الذين استثمروا قوتهم فى الضلال والإفساد والاستكبار، وفى ذلك تحذير للمستكبرين وأتباعهم من سوء المصير وتنبيه لهم إلي تدارك شأنهم قبل فوات الأوان، وإشارة إلي أن القوة نعمة من نعم الله ـ تعالى ـ ينبغى أن تثمر تواضعا وتوجه فيما ينفع ويصلح ويهدى.

وإيثار الفعل (استكبروا) على (الكبراء) المقابل للضعفاء، للدلالة على أنهم ادعوا العظمة ولم يكونوا عظماء حقيقة، ولا يقدح فى هذه النكتة البلاغية ورود (الكبراء) فى قوله ـ تعالى ـ { رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا }[٤]؛ لأن الأول من كلام

---

(١) ينظر: روح المعانى: جـ١٣، صـ٢٩٧.

(٢) الكشاف: جـ٢، صـ٥٤٨.

(٣) ينظر ابن يعقوب المغربى، مواهب الفتاح، جـ٤، صـ٢٩٤

(٤) الأحزاب ٦٧.

الله الخالص، والثانى من كلام الضعفاء الذى حكاه الله ـ تعالى ـ عنهم وهو لا يكسبهم شرفا بخلاف كلام الله غير المحكى عن غيره"[١] .

ولنقف عند مقالة الضعفاء للذين استكبروا حيث قالوا لهم: (إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء) وهذا القول يمكن تصنيفه إلي جملتين: إحداهما خبرية (إنا كنا لكم تبعا) والأخرى إنشائية (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء)، أما الجملة الخبرية فليس الغرض منها فائدة الخبر ولا لازم الفائدة؛ لأن المستكبرين عالمون بمضمون الخبر ولا يجهلون معرفة الضعفاء له، ومن هنا فالغرض من الخبر كما يوحى به السياق وساحة الخصام بين الطرفين: هو التحسر وإظهار الحزن والأسى على ما آل إليه مصير الضعفاء من عذاب مقيم، وتبكيت الذين استكبروا إذ كانوا سببا فى ضلالهم، ولعل "تقديم الجار والمجرور(لكم) على (تبعا)؛ لأنه الأنسب فى مقام التبكيت والتوبيخ والتقريع، وفيه معنى القصر، أى: تبعا لكم لا لغيركم"[٢] ولعل مجىء الخبر مؤكدا يشير إلي أن تبعيتهم للذين استكبروا أتت على غير ما كانوا يرجون ويتوقعون إذ كانوا يرجون من ورائها نفعا ويتوقعون لها فائدة، فإذا هى تؤدى إلي البوار والخسران.

أما الجملة الإنشائية وهى من تمام قول الضعفاء فمحورها هذا الاستفهام: (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء)، وقد صرح المفسرون بأن الاستفهام للعتاب والتبكيت والتوبيخ علىاستتباعهم واستغوائهم[٣]، "وموجب تقديم المسند إليه على المسند فى (فهل أنتم مغنون عنا) أن المستفهم عنه هو كون المستكبرين يغنون عنهم، لا أصل

---

(١) د/ عبد العظيم المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام جـ٢،صـ١٧٥.

(٢) د/ عبد العظيم المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام جـ٢،صـ١٧٥.

(٣) ينظر: الكشاف، جـ٢، صـ٥٤٩، وروح المعانى: جـ١٣، صـ٢٩٧، وتفسير القاسمى: جـ٦، ٣١٩.

الغناء عنهم، لأنهم آيسون منه، لما رأوا آثار الغضب الإلهى عليهم وعلى سادتهم كما تدل عليه حكاية قول المستكبرين: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) فعلموا أنهم قد غرروهم فى الدنيا، فتعين أن الاستفهام مستعمل فى التورك والتوبيخ والتبكيت، أى: فأظهروا مكانتكم عند الله التى كنتم تدعونها وتغروننا بها فى الدنيا"[1] .

وأوثر الاستفهام بـ(هل) دون الهمزة؛ لأنه أقوى دلالة على طلب حصول الإغناء والاهتمام بوقوعه؛ تحقيقا للتبكيت والتوبيخ وإظهارا لعجز المستكبرين عن دفع العذاب، ومما يلحظ أن(هل) فى كلام الضعفاء دخلت على الاسم(فهل أنتم مغنون) وهى مختصة بطلب التصديق وهو إرادة النسبة، وهذا بطبيعته يتوجه إلي المعانى لا إلي الأفراد، أى: إلي الفعل دون الاسم، لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلي الحدث الذى هو جزء من مفهوم الفعل، إذ الفعل حدث وزمن، ولكون(هل) لها مزيد اختصاص بالأفعال فإنه لا يعدل عن الفعل إلي الاسم بعدها إلا لنكتة بلاغية، وهى أن يجعل ما يحدث ويتجدد الذى هو مفاد الجملة الفعلية فى معرض الكائن الحاصل الذى هو مفاد الجملة الاسمية اهتماما بشأنه واعتناء بأمره، وذلك اعتمادا على قول البلاغيين: إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام، فقول الضعفاء(فهل انتم مغنون..)أدل على طلب حصول الإغناء من قولنا: فهل تغنون..؟، أو: فهل أنتم تغنون؛ لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية، ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد فى معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على الاهتمام بشأنه وكمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله، وكذا قولهم: (فهل أنتم مغنون) أدل على طلب حصول الإغناء من قولنا: أأنتم مغنون؟ وإن كانت صيغته للثبوت ـ كما ترى ـ؛

---

(١) التحرير والتنوير: جـ١٣، صـ٢١٦.

لأن(هل) نزاعة إلي الفعل وأدعى له من الهمزة فتركه معها أدل على كمال العناية بحصوله وشدة الاهتمام بوقوعه، ولهذا قال البلاغيون: إن قولك: هل زيد منطلق؟ أقوى دلالة على طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن تقول: أزيد منطلق؟ وقالوا: إن العدول عن الهمزة إلي(هل) فى مثل هذا لايحسن إلا من البليغ، لأنه هو الذى يلتفت إلي تلك الدقائق ويراعى هذه النكات البلاغيه ويقدر على تطويع الكلام وتكييف العبارات وصياغتها على حسب ما يقتضيه المقام[١] .

وتبدو الاستعارة التبعية فى لفظة(مغنون) واضحة؛ "لأن المراد: هل أنتم تدفعون أو تتحملون عنا شيئا من العذاب، فاستعير الإغناء للدفع أو التحمل؛ لأن من حمل عن غيره مشقة فقد أغناه عن معاناتها"[٢]، (ومن) الأولى فى قوله:(من عذاب الله) للتبيين، والثانية فى قوله (من شىء) للتبعيض، والمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شىء هو بعض عذاب الله ـ تعالى ـ؟ وفيه ما فيه من المبالغة فى عدم الغَناء المؤدى إلى مزيد من التوبيخ والتقريع للذين استكبروا، يقول الزمخشرى: "فان قلت: أى فرق بين (من) فى (من عذاب الله)، وبينه فى (من شىء)؟ قلت: الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذى هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض معا، بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شىء هو بعض عذاب الله، أى بعض بعض عذاب الله "[٣] .

---

(١) ينظر: مختصر سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح، جـ٢، صـ٢٦٩، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكى، جـ٢ن صـ٢٦٩، دلالات التراكيب، للدكتور محمد أبو موسى، صـ٢١٤، دراسات فى علم المعانى، للدكتور بسيونى فيود، جـ٢، صـ١٢١، ١٢٢.

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٢ صـ١٧٦.

(٣) الكشاف: جـ٢، صـ٥٤٨.

وجملة الاستفهام فى قول الضعفاء متسببة عن الجملة الخبرية، فالتبعية سبب لطلب الإغناء وتحمل تبعات الاستتباع، وإذا كانوا لا يحملون عنهم شيئا ولا يدفعون عنهم عذابا فالنظم فيه مزيد من التبكيت والتوبيخ وإظهار عجز المستكبرين عن دفع الضرر عن الضعفاء .

وكما وقفنا مع مقالة الضعفاء فى سياق تخاصمهم مع المستكبرين، نقف أيضا مع مقالة المستكبرين جوابا على توبيخ الضعفاء وتقريعهم: (قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) وهذا الجواب من المستكبرين يحمل اعتذارا للضعفاء عما فعلوه بهم ، يقول ابن عاشور: "وجواب المستكبرين: اعتذار عن تغريرهم بأنهم ما قصدوا به توريط أتباعهم، كيف وقد ورطوا أنفسهم أيضا، أى: لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا، وهذا الجواب جار على معنى الاستفهام التوبيخى العتابى إذ لم يجيبوهم بأنا لا نملك لكم الغناء ولكن ابتدءوا بالاعتذار عما صدر منهم نحوهم فى الدنيا علما بأن الضعفاء عالمون بأنهم لا يملكون لهم غناء من العذاب"[١] .

أما الاستفهام الوارد فى قول المستكبرين(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) "فالهمزة و(أم) قد جردتا عن الاستفهام لمجرد التسوية، ولذا صارت الجملة خبرية، فكأنه قيل: جزعنا وصبرنا سواء علينا، أى: سيان...، والجزع هو: عدم احتمال الشدة، فهو نقيض الصبر، وإنما أسندوا كلا من الجزع والصبر واستوائهما إلي ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ بإعلامهم أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم"[٢] .

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٣، صـ٢١٧.

(٢) روح المعانى: جـ١٣، صـ٢٩٩، وينظر: أمالى ابن الشجرى، جـ١، صـ٤٠٦,٣٦١.

أما قولهم: (ما لنا من محيص) فهو "تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله، وهو اليأس والقنوط، ودخول (من) على (محيص) لاستغراق النفى، أما تنكير (محيص) فللتحقير، أو الإعلام بدلالة استغراق النفى المفاد من دخول (من) على (محيص)"[١]، والمحيص: المهرب والمحيد، والحيص: الهرب من الشيء[٢]، والمعنى: ليس لنا محل ننجو فيه من عذاب الله، أو لا نجاة لنا من العذاب، وحيث لا محيص ولا نجاة فسواء الجزع والصبر، وهذا الجواب فيه إنذار للغافلين فى الدنيا وتحذير من التورط فيما يؤدى إلي هذا الندم حيث لا ينفع، ويؤدى إلي هذه الحسرة حيث لا تفيد، فقد انتهى خصام الفريقين باليأس والحسرة، ولم تثمر تبعية الضعفاء للذين استكبروا نفعا ولا فائدة ولا غناء من العذاب، بل أثمرت ندما وحزنا ونارا لا منجى منها ولا فرار.

وقد أفضى تخاصم الضعفاء والذين استكبروا إلي دخول الشيطان فى الخصام والحجاج وهو أصل الضلال ومصدره: (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم)، وسبب دخول الشيطان فى هذا التخاصم: أن الضعفاء والذين استكبروا لما لم يصلوا فى تخاصمهم إلا إلي اليأس والندم علموا أن مصدر إضلالهم هو الشيطان فتوجهوا له باللوم والتبكيت والتقريع، وقوله: (فلا تلومونى) يشير إلي أنه وُجِّه إليه ملام صريح أدخله فى حلبة التخاصم والحجاج، فهبّ يجادل عن نفسه، دافعا ملام من أضلهم بتشريكهم فى تبعية ضلالهم.

---

(١) د/ عبد العظيم المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام، جـ٢، صـ١٧٦.

(٢) لسان العرب: مادة (حيص)، جـ٧، صـ١٩،٢٠.

والغرض من قص خبر الشيطان: إثارة بغضه فى نفوس الناس، ليأخذوا حذرهم بدفع وساوسه والتخلى عن اتباعه؛ لأنه يضمر الشر لهم فيما وعدهم به فى الدنيا، أما وقع كلام الشيطان فى نفوس الضعفاء والذين استكبروا فهو موقع الندم والحسرة من نفوسهم زيادة فى ألمهم ويأسهم وقنوطهم.

والغرض من خبر الشيطان لما قضى أمر الحساب (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم): إعلان الحق وتحسير التابعين والمتبوعين الذين لم يتبعوا الوعد الحق واتبعوا الوعد الباطل، وإضافة الوعد إلي (الحق) أكسبت الوعد تشريفا ما بعده تشريف وتعظيما ما بعده تعظيم، فهو وعد صدق وحق لا خلاف فيه وبخاصة أنه فى مقابلة وعد الشيطان الباطل. يقول ابن عاشور: "وإضافة (وعد) إلي (الحق) من إضافة الموصوف إلي الصفة مبالغة فى الاتصاف، أى: الوعد الحق الذى لا نقض له"[1] والمعنى: أن الله وعدكم وعد الحق على ألسنة رسله بأن فى اتباعهم النجاة والسلامة وفى مخالفتهم الحسرة والندامة فوفى وأنجز، ووعدتكم وعد الباطل أن لا بعث ولا جزاء فأخلفتكم، "وفى الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك، حيث حذف أولا (فوفى به)؛ لدلالة قوله بعد (فأخلفتكم) عليه؛ لأنه مقابله، وحذف ثانيا (وعد الباطل)؛ لدلالة (وعد الحق)"[2]

ثم يواصل الشيطان خطابه فى الضعفاء والذين استكبروا قائلا: (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) والسلطان: مصدر تسلط عليه، أى: غلبه وقهره، والسّلاطة :القهر، وقد سلطه الله فتسلط عليهم، والسلطان الحجة والبرهان وسلطان كل شيء: شدته وحدته وسطوته[3]، والمعنى: لم أكن مجبرا لكم على اتباعى؛ لأنه لم يكن لى

---

(١) التحرير والتنوير: جـ١٣، صـ٢١٩.

(٢) تفسير القاسمى: جـ٦، صـ٣٢٠.

(٣) ينظر: لسان العرب مادة(سلط) جـ٧، صـ٣٢١.

تسلط أو حجة تدل على صدقى، ودخول (من) على (سلطان) لاستغراق النفى، أما تنكير (سلطان) فللتحقير والتقليل، أى: ليس له سلطان ما حقيرا قليلا يجبرهم به على الضلال، "والاستثناء فى (إلا أن دعوتكم) استثناء منقطع؛ لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله، فالمعنى: لكنى دعوتكم فاستجبتم لى"[1]، والفاء فى قوله: (فاستجبتم لى) تؤذن بسرعة إجابتهم لدعوته بلا تمهل أو تعقل، فما أن دعاهم إلي الضلال حتى استجابوا له واتبعوه.

أما قوله: (فلا تلمونى ولوموا أنفسكم) فقد حوى نهيا وأمرا، وهما لم يستعملا فى طلب الكف وطلب الفعل استعلاء، إذ لا فائدة من نهيهم وأمرهم فى ذلك الموقف، وإنما أريد بهما تحقير المخاطبين وإهانتهم، وإظهار أنهم ليسوا أهلا لهداية الله ـ تعالى ـ إذ سارعوا بالاستجابة إلي دعوة الضلال، كما أن النهى والأمر فى الآية يحملان معنى التيئيس من النجاة، وإعلام الضعفاء والذين استكبروا بأن لا فائدة لهم من لوم الشيطان ولوم أنفسهم، وأن ليس أمامهم إلا الأسى والحزن واليأس من دفع العذاب.

ولا يخفى ما بين (لا تلومونى) و(لوموا أنفسكم) من طباق السلب، فالمعنى فى طرفى الطباق واحد وهو اللوم غير أنه استعمل أولا منهيا عنه وأخرى مأمورا به فى كلام واحد، وتكمن بلاغة الطباق هنا فى أنه كشف عن زيف لوم الضعفاء والذين استكبروا الموجه للشيطان، وأنه لوم ساقط لا حجة فيه ولا تبعة له، لأن وعده لهم لم يكن عن طريق القسر والإلجاء وإنما هو دعوة تزيين وتسويل قوبلت بسرعة الاستجابة، أما دعوة الحق المقرونة بالبيان والحجج فقد قوبلت بالصد والكفر، "وليس مراد اللعين التنصل عن توجه اللائمة إليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه"[2].

---

(١) التحرير والتنوير: جـ١٣، صـ٢١٩.

(٢) روح المعانى: جـ١٣، صـ٣٠٢.

يقول ابن عاشور: "ومجموع الجملتين يفيد معنى القصر، كأنه قال: فلا تلوموا إلا أنفسكم، وهو فى معنى قصر قلب بالنسبة إلي إفراده باللوم وحقهم التشريكن فقلب اعتقادهم إفراده دون اعتبار الشركة، وهذا من نادر معانى القصر الإضافي، وهو مبنى على اعتبار أجدر الطرفين بالرد، وهو طرف اعتقاد العكس بحيث صار التشريك كالملغى؛ لأن الحظ الأوفر لأحد الشريكين"[1].

ولعل ما ورد بعد ذلك من قول الشيطان المحكى: (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) كان ردا على لوم الضعفاء والذين استكبروا حيث إن لومهم يحمل تعريضا بأنهم يطلبون منه حيلة لنجاتهم، ولا يبعد أن يكونوا طلبوا منه الغوث صراحة، وطوى الطلب إيجازا، لضيق المقام ولدلالة اللوم عليه، وبخاصة أنهم فى موقف الفصل وساحة التخاصم والبحث عن مهرب من العذاب المنتظر، فهم يتأملون فى كل شيء وإن أيقنوا عدم نفعه؛ دهشة وارتباكا وحيرة وطيشا.

والاصراخ: الإغاثة، وأصله من الصراخ، وهو مد الصوت، لأن المستغيث يصرخ بأعلى صوته، والصرخة: الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة، وقيل: الصراخ: الصوت الشديد ما كان، ومن أمثالهم: كانت كصرخة الحبلى للأمر يفجؤك، والصّارخ: المستغيث، والمصرِخ: المغيث[2]، واللفظ يصور لنا استصراخ الضعفاء والذين استكبروا بالشيطان لوما واستغاثة، فأخبرهم بما فيه مزيد يأسهم وحسرتهم، حيث نفى عن نفسه المقدرة على إغاثتهم، وبما أنه مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلي الاصراخ فقد عطف (وما أنتم بمصرخى) على ما قبله؛ استقصاء لعدم غناء أحدهما عن الآخر، فالشيطان محتاج إلي الإغاثة فكيف له بإغاثة غيره وفى هذا ما فيه من كمال اليأس للفريقين.

---

(١) التحرير والتنوير: جـ١٣، صـ٢٢٠.

(٢) لسان العرب: مادة (صرخ)، جـ٣، صـ٣٣.

ولعله لا يخفى إيثار التعبير بالجملة الاسمية (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) عن أن يقال: ما أصرخكم وما تصرخونى؛ لإفادة الجملة الاسمية استمرار نفى إصراخ كل منهما للآخر ودوامه، وتقديم المسند إليه المنفى(ما أنا- وما أنتم) على المسند المشتق (بمصرخكم - بمصرخى) يفيد التوكيد وتقوية الحكم، ولا يفيد الحصر؛ لأن سياق الكلام والمقام يشير إلي أن الإصراخ الذى هو الإغاثة منفى عن المسند إليه المقدم (أنا) العائد إلي الشيطان، و(أنتم) العائد إلي الضعفاء والذين استكبروا وغير مثبت لغيرهم، وفى هذا ما فيه من التأكيد على دوام اليأس من النجاة والقنوط من الإغاثة.

يقول الألوسى: "(وما أنتم بمصرخى) مما أنا فيه، وفى تعرضه لذلك مع أنه لم يكن فى حيز الاحتمال، مبالغة فى بيان عدم إصراخه إياهم وإيذان بأنه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلي الإصراخ فكيف له بإصراخ الغير؟ ولذلك آثر الجملة الاسمية، والمراد: استمرار النفى لا نفى الاستمرار، وكذا يقال فى التأكيد، فكان ما مضى جوابا منه على توبيخهم وتقريعهم، وهذا جواب استغاثتهم واستعانتهم به فى دفع ما دهمهم من عذاب"[1]

ولا يزال الشيطان يواصل تنصله من تبعات أتباعه الضعفاء والذين استكبروا فيقول: (إني كفرت بما أشركتمونى من قبل)، "أى: كفرت بإشراككم إياي لله - تعالى - فى الطاعة، لأنهم كانوا يطيعونه فى أعمال الشر كما يطاع الله - تعالى - فى أعمال الخير"[2]، والغرض من هذا الخبر المؤكد: شدة التبرؤ من إشراكهم إياه فى العبادة والطاعة، وفيه ما فيه من إظهار الخضوع لله - تعالى -؛ دفعا لزيادة العذاب عن نفسه، وقوله: (كفرت) مجاز عن التبرؤ بجامع التنصل من التبعة فى كل، "ومراد اللعين: أنه إن كان إشراككم لى

---

(١) روح المعانى: جـ١٣، صـ٣٠٣.

(٢) روح المعانى: جـ١٣، صـ٣٠٥.

بالله ـ تعالى ـ هو الذى أطمعكم فى نصرتى لكم وخيل إليكم أن لكم حقا على فإني تبرأت من ذلك ولم أحمده، فلم يبق بينى وبينكم علاقة"[1] .

أما قوله: (إن الظالمين لهم عذاب أليم) فهو من تمام كلام إبليس، وهو خبر جىء به؛ قطعا لأطماع الضعفاء والذين استكبروا فى الإغاثة والإعانة والنجاة، وهذا الخبر بمثابة التعليل لنفى الإصراخ؛ لأنه لا يدفع عنهم العذاب دافع، فهو واقع بهم لا محالة، وفى تعريف الضعفاء والذين استكبروا بعنوان الظلم: إشارة إلي استحقاقهم للعذاب المؤلم الذى لا غوث منه ولا نجاة، وأن استحقاقهم لهذا العذاب إنما هو؛ لظلمهم العظيم وهو الشرك الذى لا يغفر، وإنما يغفر ما سواه بمشيئة الله ـ تعالى.

وبعد: فقد صورت لنا الآيات الكريمة موقفا من مواقف يوم القيامة بعدما يقضى الله ـ تعالى ـ بين العباد، حيث يشتعل الخصام بين الضعفاء والذين استكبروا فالضعفاء يتهمون الذين استكبروا بأنهم السبب فى إضلالهم واستتباعهم وأن عليهم وعودا بتحمل أوزار التابعين وها هو ذا اليوم الذى يجب عليهم أن يوفوا فيه بما قطعوه على أنفسهم، وأن يتحملوا شيئا من عذاب أتباعهم الضعفاء، ويسارع الذين استكبروا بإعلان الندم والاعتذار بأنهم ما قصدوا توريط أنفسهم ولا توريط أتباعهم وأنه ليس أمام الفريقين إلا اليأس من النجاة؛ لأن الجزع والصبر سيان لا طائل من ورائهما ولا منفعة، وسرعان ما يتوجه الفريقان للشيطان المضل الحقيقى، ويشتعل الخصام فيما بينهم فيتهمونه بإضلالهم ويلومونه على ذلك ويطلبون منه إغاثتهم ونجدتهم، ويسارع الشيطان بالدفاع عن نفسه ورد التهمة على أصحابها الذين تركوا الوعد الحق واتبعوا الوعد الباطل، وأنه لم يكن من الشيطان سوى الدعوة والتزيين، وسرعة الإجابة كانت منهم، ومن هنا فاللوم يجب أن

---

(١) روح المعانى: جـ١٣، صـ٣٠٥.

يوجهوه لأنفسهم لا له، أما إغاثتهم فقد نفاها عن نفسه نفيا دائما مستمرا يقطع الأمل ويورث اليأس فى نفوسهم، ثم تبرأ من إشراكهم إياه فى الطاعة والعبادة والاتباع وأخبرهم بأن العذاب المؤلم بأهل الظلم واقع ليس له من الله دافع، ولا شك أن هذا الجدل وذاك التخاصم بين أهل الظلم يوم القيامة إنما حكاه الله ـ تعالى ـ ؛ ليكون تنبيها للسامعين وحثا لهم على النظر فى عاقبتهم والاستعداد لما لا بد منه، وأن يخطر ببالهم ذلك المقام الذى يتخاصم فيه أهل الضلال، وأن يتصوروا ذلك التخاصم الذى يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يجعلهم فى مأمن من هول وفظاعة ذلك الموقف.

المبحث الرابع

تبادل التهم بين الذين استضعفوا والذين استكبروا

قال ـ تعالى ـ { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[1] .

الآيات الكريمة تصور ما يحدث بين الذين استضعفوا والذين استكبروا وقد أوقفوا للحساب عند ربهم حيث يتبادلون التهم ويتراجعون القول فيما بينهم، فالذين استضعفوا تنبهوا من غفلتهم وتجرءوا على الذين استكبروا وادعوا عليهم أنهم السبب فى عدم إيمانهم، ويسارع الذين استكبروا بالرد على الذين استضعفوا فينكرون عليهم قولهم تبرؤًا من التهمة وأنهم ما صدوهم وإنما صدهم إجرامهم عن قبول دعوة الإيمان، ويجيب الذين استضعفوا على هذا التبرؤ بإثبات الصد عن الإيمان إلي مكر الذين استكبروا واحتيالهم وإلحاحهم على الذين استضعفوا بالتمسك بالشرك، ولا يقطع هذا التخاصم ولا تلك المجادلة إلا رؤية العذاب والأغلال التى ملأت قلوبهم ندما وحسرة .

وأحداث تخاصم أهل النار الواردة هنا فى سورة سبأ تترتب تصاعديا مع الأحداث التى سبقتها، فأهل النار فى سورة البقرة يتبرأ بعضهم من بعض، وفى سورة الأعراف يلعن بعضهم بعضا، وفى سورة إبراهيم يستصرخ بعضهم بعضاً، وكل ذلك لا يجدى نفعا،

---

(١) سبأ ٣١-٣٣.

فإذا بهم هنا يتبادلون التهم فيما بينهم، ويلقى الستضعفون تبعة كفرهم على المستكبرين ويتراشقون بالتهم فيما بينهم.

والآيات الكريمة تبدأ بهذا الموقف الدنيوى (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) وهى مقالة تنم عن نية منعقدة على عدم الإيمان بالقرآن والذى بين يديه وّجىء بحرف (لن) لتأكيد نفى إيمانهم بالكتب المنزلة على التأبيد؛ تأييسا للنبى والمسلمين من الطمع فى إيمانهم به "[١]

واسم الإشارة مشار به إلي القرآن الكريم قصدا منهم إلي تمييزه أكمل تمييز،وكان يمكن أن يقولوا: لن نؤمن بالقرآن؛ لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديدا ظاهرا وتمييزه تمييزا تاما،والذين كفروا قصدوا إلي هذا التحديد لأنهم يرغبون فى إبراز الحكم الواقع منهم عليه وهو عدم الإيمان به أبدا وزيادة تأكيد ذلك الحكم، وقولهم: (ولا بالذى بين يديه) يريدون القريب منه كالكتب السماوية السابقة عليه "ومرادهم نفى الإيمان بجميع ما يدل على البعث من الكتب السماوية المتضمنة لذلك"[٢]، وقد حكى القرآن الكريم مقالة الذين كفروا هذه دون تعقيب بما يبطلها "إيماء إلي أن بطلانها باد لكل من يسمعها حيث جمعت التكذيب بجميع الكتب والشرائع وهذا بهتان واضح"[٣]

وبعد بيان موقف الكافرين الدنيوى من القرآن الكريم وهو موقف سبقه فى السورة مواقف لهم أيضا كإنكار البعث وغيره، تأتى الآيات لتصور لنا موقفا أخرويا يبرز فيه تخاصمهم وفظاعة جزائهم: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلي

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٢، صـ٢٠٢.

(٢) روح المعانى جـ ٢٢، صـ٢١١.

(٣) التحرير والتنوير جـ٢٢، صـ ٢٠٢.

بعض القول)، والخطاب فى(ولو ترى) للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لكل من يأتى خطابه وفيه من الفضيحة واشتهار الأمر ما فيه، وأصل(لو) أن تكون للشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط وانتفاء الجزاء، فهى موضوعه للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشىء عن امتناع الشرط، تقول : لو جئتنى لأكرمتك، فيدل هذا على أن الإكرام لم يحدث لأن المجىء لم يتم، ولذا قيل[١] :إنها حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، وإذا كانت (لو) للشرط فى الماضى فيلزم من هذا كون جملتيها فعليتين ماضيتين، ولا تدخل على المضارع الا لسر بلاغى كما فى قوله: (ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم)، فدخول(لو) على المضارع لتنزيله منزلة الماضي فى تحقق الوقوع؛ لصدوره عمن لا خلاف فى صدق إخباره، ويجوز أن يكون الغرض استحضار الصورة العجيبة الغريبة: صورة الظالمين وهم موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلي بعض القول، وما من ريب فى أن استحضار الصورة وإبرازها أمام المخاطبين مرئية مشاهدة يكون أشد وقعا وأبلغ تأثيرا[٢]

وجواب(لو) محذوف للتهويل والتفظيع، والتقدير: لرأيت أمرا عظيما وشيئا فظيعا لا يحيط به الوصف ّوبلاغة حذف الجواب هنا تكمن فى أن النفس تذهب فى تقدير الجواب المحذوف كل مذهب، وفى الدلالة على أنه شىء لا يحيط به الوصف ولا تتسع له العبارة ّ[٣] .

---

(١) ينظر:مغنى اللبيب لابن هشام، جـ١، صـ٣٣٧، شرح ابن عقيل، جـ٤، صـ٤٧، الإيضاح، للخطيب القزوينى، جـ معجم البلاغة العربية لبدوى طبانة، جـ٢، صـ٨٥٩، علم المعانى لعبد العزيز عتيق، صـ١١٤

(٢) ينظر: علم المعانى د/ بسيونى فيود جـ١ ،صـ٢٢٢ـ٢٢٤.

(٣) علم المعانى د/ بسيونى فيود جـ٢ ،صـ٢٤٤.

وتأمل ما وراء الإظهار فى موضع الإضمار فى قوله: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) والظالمون: هم المشركون الكافرون الذين يرفضون الإيمان بالقرآن والذى بين يديه، وكان يمكن أن يقال فى غير القرآن: وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ هم موقوفون عند ربهم..، ولكن القرآن الكريم آثر أن يضع الظاهر(الظالمون) موضع الضمير مع المغايرة فى الصفة؛ قصدا لابرازمعنى الظلم وتسجيلا عليهم، وابرازهم ظالمين جاحدين متعنتين، وتصوير مدى ظلمهم وتعاميهم عن الحق الواضح، وقصدا إلي بيان عله ما يعتريهم فى موقف الحساب من أهوال وفظائع لا يحيط بها الوصف، فإذا أبرزوا ظالمين كافرين متعنتين فلا عجب إذا ما وقفوا هذا الموقف الأخروى الفظيع المهول وافتضحوا تلك الفضيحه العامه ، وندموا ذلك الندم الذى لا يحيط به الوصف، يقول الألوسى: "و(الظالمون) ظاهر وضع موضع المضمر؛ للتسجيل وبيان علة استحقاقهم، والأصل: ولو ترى إذ هم موقوفون عند ربهم أى: فى موقف المحاسبه"[1] .

وتأمل اسمية الجملة التى أضيف إليها الظرف(إذ الظالمون موقوفون) وافادتها للثبوت والدوام، وكان يمكن أن يقال: إذ يقف الظالمون عند ربهم، ولكن شتان ما بين التركيبين فالتركيب الثانى يفيد التجدد والحدوث، وأنهم يقفون عند ربهم وقتا ويستريحون وقتا وهذا غير مراد، أما التركيب القرآنى فيفيد أنهم موقوفون وقوفا مستمرا مهولا فظيعا لا راحة فيه ، يقول ابن عاشور: "والاتيان بالجملة التى اضيف إليها الظرف اسميه هنا؛ لإفادة طول وقوفهم بين يدى الله طولا يستوجب الضجر ويملأ القلوب رعبا"[2] .

---

(١) روح المعانى: جـ٢٢، صـ٢١١.

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٢، صـ٢٠٤.

وجملة(يرجع بعضهم إلي بعض القول) فى موضع الحال من(الظالمين) أو من ضمير(موقوفون) تقول: راجعه الكلام مراجعة ورجاعا: حاوره إياه، وما أرجع اليه كلاما: أى ما أجابه، والمراجعة: المعاودة، والرجيع من الكلام: المردود الى صاحبه[١]، يقول الزمخشرى: "أخبر عن عاقبة أمرهم وما لهم فى الآخرة فقال لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، أو للمخاطب: (ولو ترى) فى الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجب، فحذف الجواب"[٢] .

ولنتأمل أول تهمة توجه بها الذين استضعفوا إلي الذين استكبروا: (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين)، وهذه الجملة وما ذكر بعدها من الجمل المحكية بأفعال القول بيان لجملة: (يرجع بعضهم إلي بعض القول) ففى هذه الجملة خفاء وإبهام، وفيما جاء بعدها بيان وإيضاح لها، وهذا هو سر الفصل بين هذه الجملة وما بعدها؛ لأن البيان والمبين كالشىء الواحد فلا يعطف أحدهما على الآخر؛ لما بينهما من قوة الترابط وكمال الاتصال، وتكمن بلاغة هذه الصورة فى أن للبيان بعد الإبهام وقعا فى النفس وأثرا حسنا، فالشىء إذا أبهم تطلعت إليه النفس واشتاقت لبيانه فإذا ما جاء البيان صادف نفسا يقظة متطلعة فيتمكن فيها فضل تمكن...

والذين استضعفوا: هم الذين يعدهم الناس ضعفاء لا يؤبه لهم، وضعفهم هو احتياجهم فى المهمات إلي من يضطلع بشئونهم ويذب عنهم ويصرفهم كيف يشاء، ويعلم من هذا أنهم كانوا ضعفاء فى أنفسهم، وأنهم يستضعفون من غيرهم؛ بدلالة بناء الفعل معهم للمجهول (استضعفوا) بخلاف بناء الفعل مع الذين استكبروا، فقد بنى للمعلوم إشارة إلي أنهم ادعوا الاستكبار والعظمة ولم يكونوا كبراء حقيقة، وهذا الاستكبار المدعى

---

(١) لسان العرب: مادة (رجع)، جـ٨، صـ١١٦.

(٢) الكشاف: جـ٣،صـ٥٨٤.

سلطوه على عامة الناس فاستضعفوهم واستتبعوهم وأضلوهم؛ لأنهم عدوا هذا من مقتضيات استكبارهم.

وبين (استضعفوا) و(استكبروا) طباق معنوى، حيث جمع بين الضعف وما يتعلق بالقوة وهو الاستكبار، وقد وقع الطباق موقعه من البلاغة حيث أبرز طرفى الضلال فى صورة منفرة شائنة تنفر منها النفوس السوية والقلوب السليمة فالذين استضعفوا لم تكن لهم همة ولا تطلع إلي الاستقلالية وإعمال العقل، وإنما رضوا بضعفهم بل وسمحوا لغيرهم أن يستضعفوهم ويستتبعوهم ويصرفوا شئونهم إلي الضلال والغواية، والذين استكبروا عدوا أنفسهم كبراء فهم الرءوس المقدمون، واستثمروا هذا الاستكبار فى إضلال الآخرين وإغوائهم.

أما قول الذين استضعفوا للذين استكبروا: (لولا أنتم لكنا مؤمنين) فيصور جرأة الذين استضعفوا فى مواجهة الذين استكبروا، وتنبههم من غفلة طويلة كان الذين استكبروا يغرونهم فيها بالضلال حتى أوقعوهم فى هذا الموقف الحرج، أى: لولا أنتم صددتمونا عن الهدى لكنا مؤمنين بما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ "و(لولا) حرف امتناع لوجود، أى: حرف يدل على امتناع جوابه، أى: انتفائه؛ لأجل وجود شرطه، فعلم أنها حرف شرط ولكنهم اختصروا العبارة، ومعنى لأجل وجود شرطه، أى: حصوله فى الوجود، وهو حرف من الحروف الملازمة للدخول على الجملة الاسمية فيلزم إيلاؤه اسما هو المبتدأ وقد كثر حذف خبر ذلك المبتدأ فى الكلام غالبا بحيث يبقى من شرطها اسم واحد...،لأن حرف (لولا)يؤذن بتعليق حصول جوابه على وجود شرطه، فلما كان الاسم بعدها فى معنى شيء موجود حذفوا الخبر اختصارا، ويعلم من المقام أن التعليق فى الحقيقة على حالة خاصة من الأحوال التى يكون عليها الوجود مفهومة من

السياق؛ لأنه لا يكون الوجود المجرد لشيء سببا فى وجود غيره، وإنما يؤخذ أخص أحواله الملازمة لوجوده...،وقد جاء فى هذه الآية ربط التعليق بضمير (الذين استكبروا) فاقتضى أن المستضعفين ادعوا أن وجود المستكبرين مانع لهم أن يكونوا مؤمنين، فاقتضى أن جميع أحوال المستكبرين كانت تدندن حول منعهم من الإيمان فكأن وجودهم لا أثر له إلا فى ذلك من انقطاعهم للسعى فى ذلك المنع، وهو ما دل عليه قولهم فيما بعد (بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله) من فرط إلحاحهم عليهم بذلك وتكراره فى معظم الأوقات فكأنه استغرق وجودهم؛ لأن الوجود كون فى أزمنة، فكان قولهم هنا: (لولا أنتم) مبالغة فى شدة حرصهم على كفرهم، وهذا وجه وجيه فى الاعتبار البلاغى، فمقتضى الحال من هذه الآية هو حذف المسند"[1]

ولنتأمل رد الذين استكبروا على اتهام الذين استضعفوا لهم بسببيتهم فى عدم إيمانهم: (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين)، وأول ما يبدو فى هذه الآية أنها جردت من الواو فلم تعطف على سابقتها، لأنها جاءت على طريقة المجاوبة والمحاورة والشأن فى حكاية المحاورات أن يكون القول فيها بدون عطف، ويبدو الإطناب فى الآية واضحا، إذ كان يمكن أن يقال فى غير القرآن: قالوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بحذف (الذين استكبروا) وقيام واو الجماعة مقام الموصول وصلته، وحذف الجار والمجرور (للذين استضعفوا) لدلالة سياق المحاورة عليه، ولكن هذا الحذف لا يبدو معه المعنى البلاغى الذى يتناسق مع المقام والغرض، فالمقام هنا مقام خصام وجدال وتهم متبادلة وهذا يستلزم إظهار طرفى النزاع ظهورا بينا واضحا تبدو فيه المراجعة للطرف المراد مباشرة دون تعويل على كلام

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٢، صـ٢٠٥,٢٠٦، وينظر: الجنى الدانى،صـ٦٠٢.

سابق، وأما الغرض من هذا الذكر فمرجعه إلي إبراز هاتين الصفتين: الاستكبار والاستضعاف فى صورة منفرة شائنة، إذ كانتا سببا فى هذا الموقف المخزى الفاضح وتلك الندامة التى تعقبها الأغلال فى الأعناق.

ومدار كلام الذين استكبروا فى مراجعتهم للذين استضعفوا قائم على هذه الجملة الاستفهامية: (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين)، والاستفهام أريد به الإنكار على قول الذين استضعفوا تبرؤا منه، وأتى بالمسند إليه قبل المسند الفعلى فى سياق الاستفهام الانكارى الذى هو فى قوة النفى؛ ليفيد تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلى على طريقة: (ما أنا قلت هذا)[1]، يقول الزمخشرى: "أولى الاسم أعنى (نحن) حرف الإنكار؛ لأن الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم، كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين...،بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهى، فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا"[2]

وهذا الإنكار من الذين استكبروا يعدَّ بهتانا وإنكارا للواقع سببه الخوف من تحمل التبعة، والغضب من انتقاض أتباعهم عليهم "وحاصل المعنى: أن حالنا وحالكم سواء كل فريق يتحمل تبعة أعماله فإن كلا الفريقين أعرض عن الإيمان، وهذا الاستدلال مكابرة منهم وبهتان وسفسطة؛ فإنهم كانوا يصدون الدهماء عن الدين ويختلقون لهم المعاذير، وإنما نفوا أن يكونوا محولين لهم عن الإيمان بعد تقلده، وليس ذلك هو المدعى، فموقع السفسطة هو قولهم: (بعد إذ جاءكم)، لأن المجيء فيه مستعمل فى معني الاقتراب منه

---

(١) ينظر: عبد القاهر الجرجانى، دلائل الإعجاز، صـ١٢٤.

(٢) الكشاف: جـ٣، صـ٥٨٤.

والمخالطة له...، و (بل): إضراب إبطال عن الأمر الذى دخل عليه الاستفهام الإنكارى، أى: ما صددناكم بل كنتم مجرمين، والإجرام: الشرك، وهو مؤذن بتعمدهم إياه وتصميمهم عليه على بصيرة من أنفسهم دون تسويل مسول"[١]

ولنمعن النظر فى رد الذين استضعفوا على تنصل الذين استكبروا من تبعة الإضلال: (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) وأول ما يبدو ملفتا للنظر فى هذه المراجعة أن الآية جاءت بحرف العطف (الواو) فى حكاية هذه المقاولة مع أن الذين استضعفوا أجابوا بها على قول الذين استكبروا: (أنحن صددناكم..)، والشأن فى حكاية المقولات أن تحكى بدون عطف، ويفصح جار الله الزمخشرى عن السبب فى مجىء العاطف هنا فيقول: "فإن قلت: لم قيل (قال الذين استكبروا) بغير عاطف، وقيل: (وقال الذين استضعِفوا)؟ قلت: لأن الذين استضعِفوا مرّ أولا كلامهم، فجىء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جىء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول"[٢]

ويوضح ابن عاشور ما أجمله الزمخشرى فيقول: "مقالة المستضعفين هذه هى فى المعنى تكملة لمقالتهم المحكية بقوله : (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) تنبيها على أن مقالتهم تلقفها الذين استكبروا فابتدروها بالجواب...، بحيث لو انتظروا تمام كلامهم وأبلعوهم ريقهم لحصل ما فيه إبطال كلامهم ولكنهم قاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون، وحكى قولهم هذا بفعل المُضى؛ لمزاوجة كلام الذين استكبروا، لأن قول الذين استضعفوا هذا بعد أن كان تكملة لقولهم الذى قاطعه المستكبرون انقلب جوابا عن تبرؤ المستكبرين من أن يكونوا صدوا

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٢، صـ٢٠٧.

(٢) الكشاف: جـ٣، صـ٥٨٥.

المستضعفين عن الهدى، فصار لقول المستضعفين موقعان يقتضى أحد الموقعين عطفه بالواو، ويقتضى الموقع الآخر قرنه بحرف(بل) وبزيادة (مكر الليل والنهار)، وأصل الكلام: يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين إذ تأمروننا بالليل والنهار أن نكفر بالله ...، فلما قاطعه المستكبرون بكلامهم أُقحِم فى كلام المستضعفين حرف (بل)؛ إبطالا لقول المستكبرين: (بل كنتم مجرمين)، وبذلك أفاد تكملة الكلام السابق والجواب عن تبرؤ المستكبرين، ولو لم يعطف بالواو لما أفاد إلا أنه جواب عن كلام المستكبرين فقط، وهذا من أبدع الإيجاز"[1]

و(بل) للإضراب الإبطالى، يقول الزمخشرى: "لما أنكر المستكبرون بقولهم: (أنحن صددناكم) أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: (بل كنتم مجرمين) أن ذلك بكسبهم واختيارهم كرّ عليهم المستضعفون بقولهم:(بل مكر الليل والنهار) فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائبا ليلا ونهارا وحملكم إيّانا على الشرك واتخاذ الأنداد"[2]

وقد أضاف الذين استضعِفوا المكر إلي الليل والنهار وهما زمانان له فالتركيب صورة من صور التجوز فى الإسناد، وكان حق الإضافة أن تكون للناس فيقال: بل مكركم فى الليل والنهار، ولكن عدل عن هذا التركيب إلي التركيب القرآنى بجعل الليل والنهار ماكرين مبالغة فى مكر الذين استكبروا فى منع الذين استضعفوا من الإيمان حيث إن مكرهم استغرق الزمن كله ليله ونهاره وكأنهم قد انقطعوا للسعى فى ذلك المنع وامتلأ الزمن بإلحاحهم على إضلال الذين استضعفوا حتى كأن الزمان شاركهم فى ذلك الأمر وأصبح ماكرا مثلهم، يقول الزمخشرى: "ومعنى: مكر الليل والنهار: مكرهم فى الليل

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٢، صـ٢٠٧,٢٠٨.

(٢) الكشاف جـ٣، صـ٥٨.

والنهار فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازى "[١] .

والمكر: احتيال فى خفية. والمكر: الخديعة والاحتيال[٢]. والمكر: الاحتيال بإظهار الماكر فعلا ليس بفاعله؛ ليغرّ المحتال عليه "وارتفع (مكر) على الابتداء والخبر محذوف دل عليه مقابلة هذا الكلام بكلام المستكبرين إذ هو جواب عنه. فالتقدير: بل مكركم صدنا، فيفيد القصر، أى ما صدنا إلا مكركم، وهو نقض تام لقولهم: (أنحن صددناكم عن الهدى) وقولهم: (بل كنتم مجرمين) ....، وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لما رأوا قلة غَنائهم عنهم واحتقروهم حين علموا كذبهم وبهتانهم "[٣] .

ولنتأمل قوله ـ تعالى ـ :(وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) لقد تخاصم الفريقان وتراموا بالتهم فيما بينهم، ولم يفيقوا من هذا الخصام إلا على رؤية العذاب الذى أعلمهم أن تبادل التهم الواقع بينهم لا يفيدهم شيئا فحينئذ تحسروا على ما فاتهم فى الدنيا وأيقنوا بالخيبة وأسروا الندامة فى أنفسهم، ولعل إسرار الندم منهم كان بغرض اتقاء الفضيحة بين أهل الموقف، أو طمعا فى صرف العذاب عنهم. والندامة، هى: التحسر على عمل فات تداركه، تقول ندم على الشيء، وندم على ما فعل ندما وندامة، وتندم: أسف[٤] .

والأغلال فى قوله ـ تعالى ـ :(وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا): جمع (غُلّ)، والغُل: جامعة توضع فى العنق أو اليد، ويقال فى رقبته غل من حديد، وغلت يده، أى: جمعت[٥]، "وجعل الأغلال فى الأعناق شعار على أنهم يساقون إلي ما يحاولون الفرار

---

(١) الكشاف: جـ٣، صـ ٥٨٥، وينظر: أمالى ابن الشجرى جـ١، صـ٥٤، جـ٢، صـ٢٩.

(٢) لسان العرب: مادة (مكر)، جـ٥، صـ١٨٣.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٢٢، صـ ٢٠٨.

(٤) لسان العرب: مادة (ندم)، جـ١٢، صـ٥٧٢.

(٥) لسان العرب: مادة (غلل)، جـ١١، صـ٥٠٤.

والانفلات منه"[١]، و(الذين كفروا) هم أصحاب المحاورة السابقة، والأصل أن يقال: وجعلنا الأغلال فى أعناقهم، إلا أن الآية جاءت بطريق الإظهار فى مقام الإضمار، لغرض بلاغى، هو: ذم الكفر وأهله، وأنه أى: الكفر سبب فى هذا العذاب الفظيع، وأن الأغلال جزاء الكفر، يقول الألوسى: "(فى أعناق الذين كفروا)، وهم المستكبرون والمستضعفون، والأصل: فى أعناقهم، إلا أنه أظهر فى مقام الإضمار، للتنويه بذمهم، والتنبيه على موجب اغلالهم"[٢]

وجملة: (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) مستأنفة استئنافا بيانيا، والاستفهام فيها يفيد النفى، والمعنى: ما يجزون إلا ما كانوا يعملون، وهذه حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل، ولكن فرق بين الدلالة عليها بالاستفهام، والدلالة عليها بطريق النفى المعهود، ففى الاستفهام تحريك للفكر وتنبيه للعقل، وحث على النظر والتأمل حتى يتبين للمخاطب وجه الخطأ فيقلع عنه ويبتعد، وهذا من الفروق بين النفى الصريح والنفى عن طريق الاستفهام.

وبعد: فقد صورت الآيات الكريمة موقفا من مواقف يوم القيامة يقف فيه الظالمون عند ربهم يتبادلون التهم فيما بينهم ويرجع بعضهم إلي بعض القول، ويشتد التخاصم فيما بينهم، فالذين استضعفوا يتهمون الذين استكبروا بإضلالهم وصدهم عن الهدى، والذين استكبروا ينزعجون من تلك التهمة ويخافون من تحمل تبعتها فينكرونها ويردون التهمة على أصحابها ويثبتون لهم الإجرام المؤدى إلي الضلال، ويكر عليهم الذين استضعفوا مبطلين إنكارهم مثبتين لهم المكر والخديعة فى إغوائهم وإضلالهم ولا يوقف هذا الخصام وتلك الاتهامات إلا رؤية العذاب والأغلال التى تجعلهم يندمون على ما فرطوا ويتحسرون على ما أسلفوا، ويشفقون مما يرون، وما هو إلا جزاء أعمالهم وعاقبة كفرهم وضلالهم.

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٢، صـ٢١٠.

(٢) روح المعانى: جـ٢٢، صـ٢١٤.

المبحث الخامس

تبادل المساءلة بين الظالمين

قال ـ تعالى ـ : { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ }[1] .

هذه الآيات الكريمة تصور مشهدا من مشاهد الحشر يتصل بالظالمين وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله، حيث يوقفون للمساءلة والتقريع والتبكيت، ولا يكون منهم إلا الانقياد؛ لعجزهم وانعدام حيلتهم، ثم يقبل بعضهم على بعض إقبال تخاصم وجدال، فيتبادلون التقريع والتبكيت، ويتقاذفون التهم فيما بينهم، ويلقى كل فريق منهم التبعة على الآخر، خوفا وفزعا من المصير المشئوم، ولا تتوقف الخصومة إلا بعد إخبارهم باشتراكم فى العذاب، جزاء إجرامهم واستكبارهم وظلمهم.

ومشهد التخاصم فى هذه الآيات يكاد يكون مكملا لأحداث سورة سبأ السابقة، حيث هناك التهمة التى ألقاها الضعفاء على الذين استكبروا، وهى تهمة إضلالهم، أما هنا فى سورة الصافات فقد ركزت الأضواء على دليل الاتهام، وهو أن المستكبرين كانوا لشدة حرصهم على إضلال المستضعفين كانوا يأتونهم من جهة اليمين، وهى جهة القوة والتزيين التى لا تدع للتابع مجالا للنظر والاختيار.

---

(١) الصافات: ٢٢ـ٣٤.

والآيات الكريمة تبدأ بقوله ـ تعالى ـ :(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلي صراط الجحيم، وقفوهم إنهم مسئولون)، والأمر بالحشر: "أمر من قبل الله ـ تعالى ـ للملائكة الموكلين بالناس يوم الحساب"[١]، والحشر: جمع الناس يوم القيامة، والمحشر: المجمع الذى يحشر إليه القوم[٢] ، و(الذين ظلموا) هم: المشركون، وهو إظهار فى مقام الإضمار، والأصل أن يقال: احشروهم وأزواجهم اعتمادا على الآيات السابقة لهذه الآية،إلا أن الإظهار فيه تنويه بذمهم وتنبيه على موجب ما يحدث لهم من تخاصم وأهوال وعذاب. والأزواج: حلائلهم المشركات، وقيل: أمثالهم فى الشرك وفروعه، كأن يحشر أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر...[٣]، وعلى كلا الوجهين فالأزواج داخل فى الذين ظلموا، إلا أن ذكره فيه مبالغة فى الإنظار والوعيد، يقول ابن عاشور: "وذكر الأزواج إبلاغ فى الوعيد والإنظار لئلا يحسبوا أن النساء المشركات لا تبعة عليهم"[٤] ، أما حشر ما كانوا يعبدون من دون الله من أصنام ونحوها معهم، فلزيادة تحسيرهم وتخجيلهم إذ كانوا يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يملك لهم نفعا.

والأمر الثانى فى الآيات هو: (فاهدوهم إلي صراط الجحيم) والعطف بالفاء إشارة إلي سرعة الأمر بهم إلي النار عقب الحشر مباشرة دون مهلة يلتقطون فيها أنفاسهم، والهدى: ضد الضلال، وهو الرشاد وهو تبيين طريق الهدى[٥]، والهداية والهدى: الدلالة

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ١٠١.

(٢) لسان العرب: مادة (حشر)، جـ٤، صـ١٩٠.

(٣) ينظر: روح المعانى، جـ٢٣، صـ ١١٧.

(٤) التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ١٠١.

(٥) لسان العرب: مادة (هدى) جـ ١٥، صـ٣٥٤.

على الطريق لمن لا يعرفه، فهى إرشاد إلي مرغوب، وقد غلب فى ذلك، لأن كون المهدى راغبا فى معرفة الطريق: من لوازم فعل الهداية، ولذلك تقابل بالضلالة، وهى الحيرة فى الطريق. والصراط: الطريق، والمراد طريق جهنم، والتعبير بالصراط والهداية توبيخ لهم وتهكم بهم، فقد استعيرت الهداية للسوق بعنف وقهر بعد تنزيل التضاد الحاصل بينهما منزلة التماثل بقصد السخرية والتهكم، والجامع بين الهداية والسوق بقهر وعنف هو: ما يترتب على كل من الخير وإن كانت الخيرية فى الهداية محققة وفى السوق بعنف إلي طريق جهنم متخيلة، يقول القرطبى: "(فاهدوهم إلي صراط الجحيم) أى: سوقوهم إلي النار، وقيل: (فاهدوهم) أى: دلوهم، يقال: هديته إلي الطريق، وهديته الطريق، أى: دللته عليه، وأهديت الهدية، وهديت العروس، ويقال: أهديتها، أى: جعلتها بمنزلة الهدية"[١]، ويقول القاسمى: "والتعبير بالهداية والصراط للتهكم بهم"[٢]، والأسلوب "أسلوب تهكم وسخرية، لأن الهداية إنما تكون إلى طريق الخير لا الشر، والى طريق النعيم لا طريق الجحيم، والمعنى: عرفوهم طريق جهنم ووجهوهم إلي نار السعير فإذا لم يهتدوا فى الدنيا إلي الطريق المستقيم فليهتدوا اليوم إلي نار الجحيم، ويالها من سخرية باهرة كأنها سياط لاذعة"[٣].

والأمر الثالث فى الآيات هو: (وقفوهم إنهم مسئولون) وهو "أمر بإيقافهم فى ابتداء السير بهم لما أفاده الأمر من الفور بقرينة فاء التعقيب التى عطفته ، أى احبسوهم عن السير قليلا ليسألوا سؤال تأييس وتحقير وتغليظ "وقوله: (ما لكم لا تناصرون) مبين لإبهام(مسئولون)، والسؤال يفيد التقرير بالعجز عن التناصر والتعجب من ذلك والتوبيخ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن،جـ٨، صـ٦٥.

(٢) محاسن التأويل: جـ٨، صـ٨٦.

(٣) محمد على الصابونى: الإبداع البيانى فى القرآن العظيم، صـ٢٧٥.

عليه يقول الزمخشرى: " هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد أن كانوا على خلاف ذلك فى الدنيا متعاضدين متناصرين"[١]، ويقول الدكتور المطعنى: "الاستفهام فى هذه الصيغة للتقرير...تقريرالمخاطب وهم المشركون واعترافهم بأن عدم تناصرهم وأصنامهم راجع إلي عجزهم جميعا عن التناصر والتعاون... إن الاستفهام للتقرير وما قد يترتب عليه من تحسير وتوبيخ وإلزام بفساد عقيدتهم فى معبوديهم من دون الله"[٢]

وموضوع الاستفهام هو التقرير بعدم التناصر، أى: ما سبب ترك بعضكم نصرة بعض؟ "وهذا من أقوى أساليب الحجاج وأبلغها وأشدها أثرا فى نفوس المخاطبين أو الخصوم، لأن المستفهم عنه واقع، وهو التخاذل، والسبب الحامل عليه معلوم عند المتكلم والمخاطب لكن المتكلم أخرج الكلام مخرج غير العالم بالمستفهم عنه وهو فى الواقع عالم به، والمخاطب يعلم أن المستفهم عالم بما استفهم عنه، فإذا رجعوا إلي أنفسهم برز فيها المستفهم عنه وأوقعهم فى شر أعمالهم ووجدوا أنفسهم بين أمرين أحلاهما مرّ إن كان فيهما حلو وأحلى، فإما أن يجيبوا السائل ولا مناص لهم من الاعتراف بأن سبب تخاذلهم هو العجز عن التناصر، وإن كتموا كتموا على جمر جهنم، وقامت لله الحجة عليهم، وقد أشار قوله ـ تعالى ـ عقب هذه الآية : (بل هم اليوم مستسلمون) إلا أنهم لم يذكروا جوابا، لأنه ما أريد إلا تبكيتهم، وقد كان، وعلم الذين ظلموا أى منقلب انقلبوا فيه"[٣]

والإضراب المستفاد من (بل) فيه تأكيد لما دل عليه الاستفهام من التعجيز،فهم منقادون لعجزهم، وأصل الاستسلام: طلب السلامة، والانقياد لازم لذلك عرفا، تقول:

---

(١) الكشاف جـ٤، صـ ٣٩،

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣ صـ٣٥٩.

(٣) التفسير البلاغى للاستفهام: جـ٣، صـ ٣٥٩-٣٦٠.

استسلم، انقاد، والإسلام والاستسلام: الانقياد، والإسلام: إظهار الخضوع، وأسلمه، أى: خذله[١] أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضا للهلاك ويخذله، وذكر(اليوم)؛ لإظهار النكاية بهم، أى زال عنهم ما كان لهم من تناصر وتطاول قبل اليوم إذ كانوا يقولون: نحن جميع منتصر، وقد قالها أبوا جهل يوم بدر، فكان لذكر اليوم وقع بديع فى هذا المقام[٢].

وبعد تخاذلهم وانقيادهم وعجزهم عن التناصر، يتجه بعضهم إلي بعض باللائمة والتساؤل: (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) والمتسائلون هم: زعماء أهل الشرك وأتباعهم كما تبينه حكاية تحاورهم فيما بعد، وتساؤلهم، أى: تخاصمهم وهو أن يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ وتقريع ويلقى بعضهم إلي بعض تبعة ما آل إليه أمرهم "وعبّر عن إقبالهم بصيغة المضى وهو مما سيكون فى القيامة تنبيها على تحقق وقوعه؛ لأن لذلك مزيد تأثير فى تحذير زعمائهم من التغرير بهم وتحذير دهمائهم من الاغترار بتغريرهم...، فحاصل المعنى: حكاية عتاب توجه به الذين اتبعوا إلي قادتهم وزعمائهم"[٣]، والقبل: اقبالك على الإنسان كأنك لا تريد غيره، أى: أقصد قصدك وأتوجه نحوك، والإقبال: نقيض الإدبار. والمقابلة: المواجهة[٤]

ولنتأمل أول تساؤل توجه به الأتباع لرؤسائهم: (قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) ، وحق الفعل (تأتوننا) أن يعدى إلي جهة اليمين بحرف الجر (من) فلما عدى بـ (عن)، وهى للمجاوزة تعين تضمين (تأتوننا) معنى: تصدوننا، ليلائم معنى

---

(١) لسان العرب: مادة (سلم)، جـ١٢، صـ٢٩٣.

(٢) ينظر: الكشاف، جـ٤، صـ٣٩، التحرير والتنوير جـ٢٣، صـ١٠٣.

(٣) التحرير والتنوير جـ٢٣، صـ١٠٤.

(٤) لسان العرب: مادة (قبل) جـ١١، صـ٥٤٠.

المجاوزة، أى: تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها[١]، ولشرف اليمين استعيرت لجهة الخير استعارة تصريحية، ويجوز أن تكون اليمين مجازا مرسلا عن القوة والقهر، لأنها موصوفة بالقوة وبها يقع البطش فكأنه أطلق المحل على الحال، أو السبب على المسبب، ويمكن أن يكون ذلك بطريق الاستعارة وتشبيه القوة بالجانب الأيمن فى التقدم، على معنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسروننا عليه[٢] .

يقول الزمخشرى: "اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمنون بها، فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سموها الشؤمى، كما سموا أختها اليمنى، وتيمنوا بالسانح وتطيروا بالبارح وكان الأعسر معيبا عندهم، وعضدت الشريعة ذلك فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين وأراذلها بالشمال، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب التيامن فى كل شىء، وجعلت اليمين لكاتب الحسنات والشمال لكاتب السيئات، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسىء أن يؤتاه بشماله: استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين، أى: من قبل الخير وناحيته فصده عنه وأضله...، فإن قلت: قولهم: أتاه من جهة الخير وناحيته: مجاز فى نفسه، فكيف جعلت اليمين مجازا عن المجاز؟ قلت: من المجاز ما غلب فى الاستعمال حتى لحق بالحقائق، وهذا من ذاك، ولك أن تجعلها مستعارة للقوة والقهر،لأن اليمين موصوفة بالقوة وبها يقع البطش، والمعنى: أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسروننا عليه، وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم والغواة لشياطينهم"[٣] .

---

(١) ينظر: الدكتور/ محمد اللخضرى، من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم، صـ٣٢٢.

(٢) ينظر: روح المعانى، جـ٢٣، صـ١٢٠.

(٣)الكشاف، جـ٤، صـ٤٠.

وإذا ما تأملنا ثانية التهمة التى ألقاها الأتباع على الرؤساء(إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) نجد أنها تقطر حسرة وندما على هذا الاتِّباع الذى أثمر هلاكا وبوارا، وربما ظن الأتباع أن لهم عذرا بهذه التهمه إذ إن الرؤساء كانوا يأتونهم بالدعوة إلي الضلال إتيان الماكر الخبيث الذى يحتال على صاحبه ليوقعه فى شرك الخديعة، إنهم كانوا يأتونهم من جهة الخير التى يحبونها ويتفاءلون بها فيزينون لهم الضلال، وكأن هذا التزيين الماكر بيان لما أجمل فى آية سبأ: { بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا } [1] إنه إتيان ماكر من جهة قوية لا تدع للتابع مجالا للنظر والاختيار، وسواء كان الإتيان فى قوة التزيين أم كان فى قوة السلطان والغلبة فهو لا يخلو من المكر والخديعة والقهر، هكذا صاغ الأتباع تهمتهم وقذفوا بها فى وجه القادة نادمين ومبكتين.

ولنتأمل ما رد به القادة على أتباعهم: (قالوا بل لم تكونوا مؤمنين) وهو إنكار لتهمة الإضلال؟ أى: ما أضللناكم وإنما عدم إيمانكم كان بمحض إرادتكم "وتسليط النفى على فعل الكون دون أن يقال: بل لم تؤمنوا، مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم، أى: بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان" [2] ثم نفى الرؤساء عن أنفسهم قوة القهر والغلبة التى تجعلهم يجبرون الأتباع على رفض الإيمان (وما كان لنا عليكم من سلطان) وهذا النفى بهتان منهم؛ لأنهم كانوا فعلا يصدون الأتباع بكل الطرق عن اتباع الحق، ولكن خوفا من تحمل التبعة أنكروا هذه التهمه ونفوا عن أنفسهم أن يكونوا سلطوا سلطان القهر والتزيين على الاتباع لإضلالهم وأكدوا هذا النفى بقولهم: (بل كنتم قوما طاغيين) أى مجاوزين الحد فى الكفر ومصرين على العصيان باختياركم لا بإجبارنا لكم، وكان يمكن

---

(١) سبأ ٣٣،

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٣ صـ ١٠٥

أن يقال: بل كنتم طاغين، إلا أن الإتيان بلفظه (قوما) يوحى بأن الطغيان كان من سجاياهم الثابتة الدائمة المخالطة لهم يقول ابن عاشور: "أقحموا لفظ (قوما) بين كان وخبرها؛ لأن استحضارهم بعنوان القومية فى الطغيان يؤذن بأن الطغيان من مقومات قوميتهم"(١).

ولا يزال الكلام للرؤساء؛ ردا على اتهام الأتباع لهم بإضلالهم، فبعد أن نفوا عن أنفسهم تهمة الإضلال وأثبتوا للأتباع سجية الطغيان واختيار الكفر والإصرار على العصيان من تلقاء أنفسهم دون القهر من غيرهم قالوا: (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) وتبدوا حدة التخاصم فى هذه الآية قد هدأت وحل محلها أسى يعتصر قلوب الرؤساء وندم يمزق أحشاءهم ، فضمائر الجمع فى الآيه للفريقين، وفى ضم الرؤساء أنفسهم مع الأتباع، سد لباب اللوم والخصام، وسبب الخصام هو العذاب المنتظر وهو أمر مقضى لامحيص عنه لأنه نتيجة لعدم إيمان الفريقين وطغيان الجميع فلا يلومن أحد أحدا ولكن ليلم كل فريق نفسه، وحذف مفعول (ذائقون) لتعينه بدلالة المقام إذ لا شك أنهم ذائقو عذاب الجحيم التى هدوا إلي طريقها، وفى هذا ما فيه من الأسى والندم الذى جعلهم يؤثرون الحذف على الذكر وبخاصة أنهم فى ضيق وكرب وهم .

أما قولهم: (فأغويناكم إنا كنا غاوين) فمعناه: ما أكرهناكم على الشرك، وإنما وجدناكم طاغين متمسكين بالشرك فأيدناكم فى غوايتكم لأننا كنا غاوين فسولنا لكم ما ارتضيناه لأنفسنا، وإقرارهم بالإغواء والغواية هنا مترتب على ما ظهر لهم فى هذا الموقف من أنهم كانوا على ضلال وإلا فهم فى الدنيا يصرون على أنهم على الحق.

ولما كان الغرض من هذه المحاورة بيان عدم إجداء تنصل الفريقين وأن تبادل التهم لا يفيدهم ولا يبعد عنهم العذاب جاء قوله ـ تعالى ـ: (فإنهم يومئذ فى العذاب

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٣، صـ ١٠٥

مشتركون)، أى: إذا كان حالهم كما سمعت فإنهم يوم القيامة فى العذاب مشتركون لاشتراكهم فى الشرك فلا عذر للرؤساء لأنهم سولوا وأغووا ولا عذر للأتباع لأنهم استجابوا وضلوا، وقوله: (إنا كذلك نفعل بالمجرمين) تعليل بالحكم عليهم بالاشتراك فى العذاب، فجزاء المشركين يكون من مثل ذلك الجزاء فى مؤاخذة التابع والمتبوع.[1]

وبعد: فقد صورت لنا الآيات الكريمة موقفا من مواقف يوم القيامة يحشر فيه: الظالمون وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله، ويُعَرَّفون بطريق الجحيم ثم يوقفون ليُسألوا عن عدم تناصرهم تبكيتا وتوبيخا لهم ثم تحدث بينهم مشادة كلامية وخصام وجدال يبدأ باتهام الأتباع للرؤساء بأنهم أضلوهم بالتزيين والمكر والقوة والسلطان، ويجيب الرؤساء بأن الإيمان لم يكن من شأن الأتباع، وأنه لم يكن لهم على الأتباع قهر وسلطان يجبرهم على الكفر والضلال، وإنما طغيان الأتباع هو الذى جعلهم يصرون على الكفر والضلال وبما أن الفريقين قد كفروا واختاروا الضلال فلا مجال للّوم والعتاب لأنه لا يجدى نفعا فالفريقان سيتذوقون الجحيم ويشتركون فى العذاب جزاء طغيانهم وإجرامهم.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير :جـ٢٣، صـ١٠٧.

المبحث السادس

نفى الترحيب بين أهل النار

قال ـ تعالى ـ : { هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَـذَا فَـوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُـمْ أَنْـتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّـارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَـذْنَاهُمْ سِـخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ }[1].

هذه الآيات الكريمة تصور موقفا من مواقف تخاصم أهل النـار عنـد دخـولهم النـار وولوجهم فى العذاب حيث يتراشقون فيما بينهم بنفى الترحيب وتبادل الاتهامات فـيمن تسبب فى هذا المآل الفظيع والقرار البئيس، وهذا التخاصم إنما هو جزء مـن قصـة هـؤلاء الطاغين جاءت عقب ما سرد من أحوال المتقين فى ذاك اليوم حيث لهم حسن المـآب وتفـتح لهم أبواب الجنان يستمتعون بما فيها من فاكهـة وشراب وحور أتراب، أما هؤلاء الطاغين فلهم شر المآب جهنم وبـئس المهـاد يتـذوقون فيهـا الحمـيم والغسـاق ويتخاصـمون بنفـى الترحيب وتبادل اللوم والعتاب، وغالبا ما تقرن صورة أهل الهدى بصورة أهل الضلال فى الكتاب المجيد؛ لتظهر إحداهما الأخرى لكل ذى بصر وبصيرة ويتحقق غـرض الترغيـب والترهيب .

ومشهد تخاصم أهل النار فى هذه السورة يترتب على مـا سـبقه مـن أحـداث، فـإذا كان المتخاصمون قد تبرأ بعضهم من بعض فى سورة البقرة، وتبادلوا الـتلاعن فيمـا بيـنهم فى سورة الأعراف، فلما لم يفدهم هـذا ولا ذاك، ولهـول مـا يشـاهدون استصـرخ بعضـهم ببعض كما جاء فى سورة إبراهيم، فلما لم يغث بعضهم بعضا تراشقوا بالتهم كما جاء فى

---

(١) ص: ٥٥ـ٦٤.

سورة سبأ، ووثقوا التهم بالأدلة كما جاء فى سورة الصافات، أما مشهد التخاصم فى سورة (ص) التى نحن بصدد الحديث عنها فقد جاء بداية لمرحلة جديدة فى أحداث تخاصم أهل النار، فهم فى الأحداث السابقة كان تبرؤهم، واستغاثتهم، واتهامهم، وأدلة اتهامهم، كل ذلك كان قبل دخول النار، فى مواقف البعث والعرض والحشر والحساب، إلا موقف سورة الأعراف فأحداثه تدور فى النار، وسورة الأعراف فى ترتيب النزول تأتى بعد (ص) التى تركز أحداثها على تراشق أهل النار بنفى الترحيب حال دخولهم النار، ثم إنهم يتلاعنون كما جاء فى الأعراف.

والآيات تبدأ بهذه الأخبار المؤكدة بما ينتظر الظالمين من مآل ومصير: (هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد) واسم الإشارة فصل الكلام السابق عن الكلام الآتى بعده؛ قصدا لانتقال الكلام من غرض إلي غرض إنهاء للكلام الذى قبله مثل جملة (أما بعد)، وهذا الأسلوب من الانتقال يسمى فى عرف علماء البلاغة بالاقتضاب القريب من التخلص[1] والإشارة تعود إلي ما قبلها من بيان حال المتقين وحسن مآبهم، واسم الإشارة مبتدأ حذف خبره، أى: هذا حال المتقين والغرض من الحذف: العلم به، فأحوال المتقين يوم القيامة لا تخفى وقد بينها الحق قبل اسم الإشارة بيانا واضحا مرغبا فى سبيلهم ومشوقا إلي مآلهم، وفى الحذف أيضا تعجيل للمساءة بسرعة إيراد أحوال الطاغين وما ينتظرهم من شر وسوء مآب وخصام وجدال عساه أن يكون رادعا لهم عن الضلال والإضلال.

---

(١) يقول ابن يعقوب المغربى: "من جملة الاقتضاب القريب من التخلص الاصطلاحى، وهو ما يكون بالمناسبة الربطية، ما يكون بلفظ (هذا)، كما فى قوله ـ تعالى ـ: (هذا وإن للطاغين لشر مآب) فالانتقال معه اقتضاب؛ لأن ما بعده لم يربط بالمناسبة بينه وبين ما قبله ولكن فيه نوع ارتباط...، ووجه الارتباط: أن الواو للحال فى قوله: (وإن للطاغين)، فقد أفاد الكلام بمعونة اسم الإشارة المصحح للحالية؛ لأن فيه رائحة الفعل، أن ما بعده واقع فى صحبة ما قبله، فكان فيه ارتباط أشبه بالتخلص" مواهب الفتاح، جـ٤، صـ٥٤١، وينظر: علم البديع: د/ فيود: جـ٢، صـ ١٣١.

وقد أكد الخبر: (وإن للطاغين لشر مآب) فى مواجهة من ينكرون هذا المصير وهم الطغاة الكافرون حيث كانوا يدعون أن لهم الحسنى عند ربهم، والطاغون: هم الذين تجاوزوا الحد فى الكبر والطغيان " والمراد بهم: عظماء أهل الشرك؛ لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاص بن وائل وأضرابهم "[1] ، ولا يخفى ما فى إضافة (شر) إلي (مآب) وما أفادته الإضافة من تحقير لشأن المضاف إليه وتنفير من هذا المآل الذى هو شر كله.

وجملة: (جهنم يصلونها فبئس المهاد) بدل اشتمال من (لشر مآب) ولذا ترك العطف بين الجملتين لما بينهما من كمال اتصال وشدة ترابط، لأن الجملة الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى، إذ المراد من الأولى تنفير المخاطبين من عاقبة الطغيان، والجملة الثانية أوفى بهذا الغرض حيث دلت على المعنى بالتفصيل، فنص على المآب وهو(جهنم) وما يفعل بهم فيها (يصلونها) وأنها مذمومة (فبئس المهاد)، والمهاد: الفراش. مهدت لنفسى: أى جعلت لها مكانا وطيئا سهلا، والمهد: مهد الصبى، وهو موضعه الذى يهيأ له ويوطأ لينام فيه[2]. والمهاد: هو فراش النائم وعبر عن جهنم بالمهاد بطريق الاستعارة حيث " شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم "[3]

والإشارة فى قوله: (هذا فليذوقوه حميم وغساق) إلي ما سبق ذكره من شر المآب وجهنم التى يصلونها وبئس القرار، وجىء باسم الإشارة القريب تنزيلا للمشار إليه

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ٢٨٥.

(٢) لسان العرب: مادة (مهد)، جـ٣، صـ٤١٠.

(٣) الكشاف: جـ٤، صـ١٠١.

الغائب منزلة الحاضر القريب، وفى هذا إيماء إلى أنه عذاب محقق وقوعه، وفى هذا مزيد إنذار للطاغين وردع للضالين المضلين، "والحميم: الماء الشديد الحرارة، والغساق: اسم لما يجرى من صديد أهل النار"[1] وجملة (فليذوقوه): اعتراض بين اسم الإشارة وخبره، والغرض منه: التنفير من هذا المآل المهين الفظيع، وصيغة الأمر أريد بها التهديد والإهانة والتحقير لمن يرضى لنفسه بهذا المصير أو يفعل أفعالا تؤول به إلي هذا المآب الشنيع، وأوثر المضارع المسبوق بلام الأمر، لدلالته على التجدد والاستمرار، وإشعاره بأن لهم إذاقة بعد إذاقة، وفى هذا ما فيه من تهويل للعذاب وتفظيع له، وليس الأمر مقصورا على تذوق الحميم والغساق وإنما لهم مذوق آخر نص عليه قوله ـ تعالى ـ :(وآخر من شكله أزواج)، أى: لهم عذاب آخر هو أزواج وأصناف كثيرة من مثل هذا المذوق فى الشدة والفظاعة.

هذا جانب مما هدد الله ـ تعالى ـ به الطاغين بما ينتظرهم يوم القيامة من المآب السيىء والقرار البئيس وألوان العذاب المهول الفظيع، أما الجانب الآخر الذى صورته الآيات الكريمة فهو متعلق بالطغاة المستكبرين الذين لم يتعظوا ولم يهتدوا بل أصروا على الضلال والإضلال فها هم أولاء يُقحَمون فى جهنم إقحاما، لا يرحب بعضهم ببعض، وإنما يلوم بعضهم بعضا، ويطلب بعضهم المزيد من العذاب للبعض الآخر،وكأن عذابهم لم يقف عند العذاب الجسمانى فقط وإنما تعداه إلي العذاب النفسى برجوع بعضهم إلي بعض بالتنديم وسوء المعاملة.

ولنتأمل قوله ـ تعالى ـ: (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار) فهذا ابتداء كلام حكى به تخاصم الطاغين عند دخولهم النار، وأسلوب المقاولة يقتضى أن

---

(١) ينظر: روح المعانى: جـ٢٣، صـ٣١٦.

يكون المتكلم به هم الطاغون الذين لهم شر المآب، والمعنى يقول الطاغون: بعضهم لبعض هذا فوج مقتحم معكم ليسوا من أكفائكم، والاقتحام: هو ركوب الشدة، تقول: قَحَم فى الأمر قحوما: رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية[١]، يقول الزمخشرى: "هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أى: دخل النار فى صحبتكم وقرانكم...، وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أى: يقولون هذا، والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب"[٢] .

ولا يخفى ما فى اسم الإشارة (هذا) من "قصد تمييز المسند إليه أكمل تمييز، لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديدا ظاهرا وتمييزه تمييزا تاما، ولذا فإن المتكلم قد يقصد إلي هذا التحديد؛ ليحضر المسند إليه فى ذهن السامع متميزا تمام التميز، وذلك عندما يكون معنيا بالحكم الذى يريد إضافته إليه ويرغب فى إبرازه وزيادة تأكيده"[٣]

فاسم الإشارة (هذا) أفاد تمييز الأتباع وحضورهم فى ذهن المتبوعين، وبعد هذا التمييز أضافوا إليهم صفة الإقحام (مقتحم)، أى يركبون أهوال العذاب ويدخلون فيها ويقاسون شدتها معكم، ولا يخفى ما وراء اسم الإشارة الموضوع للقريب (هذا) من تحقير وإهانة من المتبوعين للأتباع، كما لا يخفى ما فى صيغة اسم الفاعل (مقتحم) من سرعة الاقتحام فى النار وتتابعه فجأة بلا روية ولا توقف.

وتزداد لهجة المتبوعين فى إهانة أتباعهم عندما يذمونهم بقولهم: (لا مرحبا بهم) والمراد بهذه العبارة المنفية: الدعاء بالسوء، يقول الزمخشرى: "(لا مرحبا بهم) دعاء

---

(١) لسان العرب: مادة (قحم)، جـ٤، صـ١٦١.

(٢) الكشاف: جـ٤، صـ١٠٢.

(٣) د/ بسيونى فيود، : علم المعانى، جـ١ ،صـ١٢٤.

منهم على أتباعهم، تقول لمن تدعو له: مرحبا، أى: أتيت رحبا من البلاد لا ضيقا، أو رحبت بلادك رحبا، ثم تدخل عليه (لا) فى دعاء السوء"[١]، وإنما قالوا ذلك، لأنهم كرهوا أن يكونوا هم وأتباعهم فى مكان واحد، لاستيحاش بعضهم من بعض، وقبح المنظر وسوء المخبر، وجملة: (إنهم صالوا النار) تعليل لاستحقاقهم الدعاء عليهم، وهى جملة خبرية أريد بها التضجر منهم والزهد فيهم لأنهم لا طائل من ورائهم ولا نفع منهم، بل يقتحمون جهنم مزاحمين لهم، وهو اقتحام مكره، لأنهم يساقون إلي العذاب سوقا.

ولنتأمل ما رد به الأتباع وهم الفوج المقتحم على تلك الإهانة التى وجهها المتبوعون لهم: (قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم)، و(بل) للإضراب الإبطالى؛ لرد الشتم على المتبوعين وأنهم أولى به، يقول الزمخشرى: "يريدون : الدعاء الذى دعوتم به علينا أنتم أحق به"[٢]، وفى البحر المحيط: "خاطبوهم لتكون المواجهة لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم فى الدنيا بقبيح أشفى لصدورهم حيث تسببوا فى كفرهم، وأنكى للرؤساء"[٣].

أما قولهم: (أنتم قدمتموه لنا) فهو تعليل لكونهم أولى بنفى الترحيب، وضمير الغيبة فى (قدمتموه) للعذاب، "ووقوع (أنتم) قبل (قدمتموه) المسند الفعلى يفيد الحصر، أى لم يضلنا غيركم، فأنتم أحق بالعذاب"[٤]، وفى الكلام مجازان عقليان، الأول: إسناد تقديم العذاب إلي المخاطبين وهم الرؤساء، من إسناد الفعل إلي سببه، والأصل أن الأتباع هم العاملون المقدمون فى الحقيقة لا رؤساؤهم، لكن لما كان الرؤساء هم السبب فى إضلال أتباعهم صح إسناد الفعل إليهم إسنادا مجازيا بعلاقة السببية، وفيه إيحاء بقوة السببية

---

(١) الكشاف: جـ٤،صـ١٠٢.

(٢) الكشاف: جـ٤، صـ١٠٢.

(٣) أبو حيان البحر المحيط، جـ

(٤) التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ٢٩٠.

وأن الرؤساء كانوا حريصين على استتباع الضعفاء وإضلالهم، وأنهم أغلقوا دونهم كل باب للهداية والرشاد.

والثانى: إيقاع التقديم على العذاب مع أنه ليس المقدم، وإنما المقدم هو الضلال والطغيان الذى هو السبب فى استحقاق العذاب، فهو مجاز عقلى طريقه النسبة الإيقاعية، وفيه ما فيه من المبالغة فى جعل الأعمال التى تؤدى إلي العذاب عذابا، والأفعال التى تؤدى إلي النار نارا، يقول الزمخشرى: "فإن قلت: ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلت: المقدم هو عمل السوء..، لكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: (أنتم قدمتموه لنا) فجعل الرؤساء هم المقدِّمون، وجعل الجزاء هو المقدَّم فجمع بين مجازين، لأن العاملون هم المقدِّمون فى الحقيقة لا رؤساؤهم، والعمل هو المقدَّم لا جزاؤه"[(١)]، والمجاز العقلى مسلك بليغ حين يلجأ إليه لنفى تهمة أو التخلص من جريمة، والأتباع فى موقف الخصام مع قادتهم، يريدون أن يتخلصوا من جريمة ضلالهم وطغيانهم، فألقوا التهمة على رؤسائهم المتسببين فى إضلالهم وإغوائهم، أملا فى إلقاء التبعة على القادة، وطمعا فى تحميلهم جزءا من العذاب المحتوم.

وبعد أن ألقى الأتباع التهمة على رؤسائهم بأنهم السبب فى إضلالهم الذى آل بهم إلي جهنم جاء ذمهم لهذا المآل: (فبئس القرار) "وهو ذم لإقامتهم فى جهنم؛ تشنيعا عليهم فيما تسببوا لأنفسهم فيه، والمعنى: فبئس القرار ما قدمتموه لنا، أى: العذاب"[(٢)].

أما قوله ـ تعالى ـ :(قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عزابا ضعفا فى النار) فهو باتفاق المفسرين[(٣)] من كلام الفوج المقتحم وهم الأتباع، ويبدو أن كلامهم هذا مبنى على

---

(١) الكشاف: جـ٤، صـ١٠٢.

(٢) التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ٢٩٠.

(٣) ينظر: الكشاف، جـ٤، صـ١٠٢، روح المعانى: جـ٢٣، صـ٣٢٠، التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ٢٩١.

كلام محذوف للرؤساء، تقديره: بل أنتم قدمتموه لأنفسكم، لأن قول الأتباع الأول يتضمن أمرين، أحدهما الرد على عدم الترحيب الذى واجههم بـه الرؤسـاء (بـل أنـتم لا مرحبـا بكم)، والآخر: إلقاء تبعة ما آل إليه حالهم على الرؤسـاء، لأنهـم السـبب فـى إضـلالهم (أنتم قدمتموه لنا)، وهذه تهمة لا يترك الرؤساء إنكارهـا خوفـا مـن تحمـل تبعتهـا كمـا تشير إلي ذلك مواقفهم السابقة فى سورة سبأ والصافات، ومن هنا أرى أن قـول الأتبـاع : (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار) ما هو إلا رد علـى مقولـة الرؤسـاء التـى طواها النظم القرآنى لدلالة المواقف الأخرى عليها، وكأن الأتبـاع إذ يئسـوا مـن عـدم نفـع الرؤساء وأنه لا فائدة من التخاصم معهم لإنكارهم ما كـانوا يفعلونـه بهـم فـى الـدنيا مـن إضلال واستتباع، أعرضوا عن خصومة قادتهم متحسرين ونادمين وتضرعوا إلي ربهم ـ عز وجل ـ ليحكم على المتسبب فى هذا المآل بمضاعفة العذاب "وهو أن يزيد على عـذاب مثلـه فيصير ضعفين"[١] .

ولا يخفى ما فى حكاية هذا الكلام من "تحذير لكبراء المشركين من عواقب رئاستهم وزعامتهم التى يجرون بها الويلات على أتباعهم، فيوقعونهم فى هاويـة السـوء حتـى لا يجد الأتباع لهم جزاء بعد الفوت إلا طلب مضاعفة العـذاب لهـم"[٢]، ولعـل اسـم الإشـارة (هذا) يصور شدة الأسى والحزن والحسرة والألم التى تملأ قلوب الضعفاء، وهو مشـار بـه إلي ألوان العذاب وأشكاله الفظيعة، ولا يبعد أن يكون القصـد مـن تعريـف العـذاب باسـم الإشارة: إفادة التفخيم والتهويل للعذاب العظيم الفظيع الذى لا يحيط به الوصف.

ولنتأمل قوله ـ تعالى ـ :(وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعـدهم مـن الأشـرار، أتخـذناهم سِخريا أم زاغت عنهم الأبصار)، فالضمير فى (وقالوا) للطاغين، والاستفهام فى (مالنـا لا

---

(١) الكشاف، جـ٤، صـ١٠٢.

(٢) التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ٢٩١.

نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) استفهام يلقيه بعضهم إلي بعض تحسرا وتعجبا وندما على تحقيرهم المسلمين، فليس الاستفهام عن عدم رؤيتهم المسلمين فى جهنم استفهاما حقيقيا ناشئا عن ظن أنهم يجدون رجال المسلمين معهم إذ لا يخطر ببال الطاغين أن يكون رجال المسلمين معهم، كيف وهم يعلمون أنهم بضد حالهم فلا يتوهمونهم معهم فى العذاب، فالاستفهام فيه تعجب وتحسر مما فعلوه بفقراء المسلمين حيث عدوهم (من الأشرار)، أى: "الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرارا"[١] يسترذلونهم ويسخرون منهم ويحقرونهم ويستضعفونهم لفقرهم.

والاستفهام الثانى جاء فى قولهم: (أتخذناهم سِخريا أم زاغت عنهم الأبصار)، والسِّخرى: الاستهزاء، وسَخِر: هزئ[٢]، "وهو دال على شدة الاستهزاء، لأن ياءه فى الأصل ياء نسب، وياء النسب تأتى للمبالغة فى الوصف"[٣]، والزيغ: الميل عن الجهة، تقول: زاغ زوغا: مال وأمال، والزيغ: الشك والجور عن الحق[٤]، والمعنى: مالت أبصارنا عنهم كبرا وتنحت عنهم أنفة، و(أم) تحتمل الاتصال فيكون المعنى، أى الفعلين فعلنا بهم: السخرية منهم والاستهزاء، أم التحقير لهم والازدراء؟ على معنى: إنكار الأمرين على أنفسهم تحسرا وندما على ما فعلوه وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب[٥].

وتصلح(أم) للانقطاع "كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسخار وأنكروا على أنفسهم أشد منه وهو أنهم جعلوهم مُحَقّرين لا ينظر إليهم بوجه، وفى(زاغت) دون(أزغنا) مبالغه عظيمة

---

(١) الكشاف، جـ٤، صـ١٠٢.

(٢) القاموس المحيط: مادة (سخر)، جـ٢، صـ٤٦.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٢٣، صـ٢٩٣.

(٤) القاموس المحيط: مادة: (زيغ)، جـ٣، صـ١٠٧.

(٥) ينظر: محاسن التأويل، جـ٨، صـ١٥٦.

كأن العين نفسها تمجهم لقبح منظرهم"[١] ففى الإسناد مجاز عقلى علاقته المفعولية، وبقدر المبالغة التحقيرية فى الدنيا تكون الحسرة والندم للطاغين فى الآخرة وبخاصة أن هؤلاء المبالغ فى تحقيرهم وازدرائهم فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة فى مقام كريم وأصبح الساخرون منهم فى قرار بئيس.

ولنتأمل قول الله ـ تعالى ـ(إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) وهو تذييل [٢] لوصف أحوال الطاغين وأتباعهم وجدالهم وتخاصمهم،وأكد الخبر بـ(إن) واللام (لحق) تأكيدا لتحققه فى المستقبل إذ لا بد أن يتكلموا به وفيه ما فيه من الإنذار والردع، والتأكيد مطابق لمقتضى حال الطاغين المشركين الذين ينكرون هذا المآب لأنفسهم ويصرون على أن لهم الحسنى عند ربهم، واسم الإشارة مشار به إلي ما حكى عن الطاغين من مقاولة وجدال، ولام البعد تفيد التحقير والازدراء فهؤلاء بما آل إليه حالهم من تقاول بعيدين عن رحمة الله لحقارتهم وضعة شأنهم والمراد بالتخاصم التقاول. (والخصومة): الجدل، تقول: خاصمه مخاصمة وخصومة فخصمه يخصمه: غلبه، ورجل خَصِم مجادل [٣] "فإن قلت: لم سمِّى ذلك تخاصما؟ قلت: شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك، ولأن قول الرؤساء:(لا مرحبا بهم)، وقول أتباعهم: (بل أنتم لا مرحبا بكم) من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصما؛ لأجل اشتماله على ذلك"[٤] .

---

(١) روح المعانى جـ٢٣، صـ٣٢١.

(٢) التذييل هو: تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد، ينظر: شروح التلخيص، جـ٣، صـ٢٥٥، والأطول، لعصام الدين زادة، صـ٤٥.

(٣) القاموس المحيط مادة(خصم) جـ٤، صـ١٠٧.

(٤) الكشاف: جـ٤، صـ١٠٣،

وبعد: فقد صورت الآيات الكريمة جانبا من تخاصم أهل النار ساعة اقتحامهم لشدائدها، حيث يبدأ القادة بتحقير الأتباع عندما يرونهم مقتحمين معهم داخلين فيهم دخول التابع مع المتبوع فليقونهم لقاء غير المرغوب فيه معرضين عنهم قائلين لهم(لا مرحبا بهم) ، ولا يسكت الأتباع أمام هذه الإهانة بل يردون عليهم(بل أنتم لا مرحبا بكم)، فأنتم أولى بالشتم وعدم الترحيب لأنكم تسببتم لأنفسكم ولنا فى هذا العذاب بإغرائكم إيانا على الكفر، وأمركم لنا بالتكذيب، وكأن القادة أنكروا هذه التهمه خوفا من تبعتها، فتوجه الأتباع إلي الحكيم ـ تعالى شأنه ـ داعين إياه أن يضاعف العذاب لمن تسبب فى هذا المآل، ولا فائدة للفريقين من تلك المقاولة وذلك الخصام إلا الندم الذى يملأ قلوبهم والحسرة التى تمزق صدورهم، فيتساءلون متحسرين عن عدم رؤيتهم لرجال كانوا يعدونهم فى الدنيا من الأشرار لمخالفتهم دين الكفر والطغيان ودخولهم فى الهداية والرشاد، والاستفهام فيه تعجب من فعلهم هذا أى: كيف خفيت عنا مكانتهم وأنهم كانوا على الحق المبين، ثم يتابعون ندمهم منكرين على أنفسهم ما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء، والتكبر والازدراء، ثم تتوقف أنفاس الجميع عن الخصام ليعلن الحق ـ جل شأنه ـ أن تلك المقاولة وذلك التخاصم حقيقة مؤكدة، وأمر ثابت سيحدث بين من ارتضوا لأنفسهم مسلك الضلال والإضلال، ومن ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أتباعا فى الكفر والطغيان فهل فى ذلك عظة لذى حجر؟

المبحث السابع

تبادل الحجاج بين الضعفاء والذين استكبروا

قال ـ تعالى ـ : { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ }[1] .

الآيات الكريمة تصور مشهدا مفزعا من داخل النار بعد أن، قضى الله ـ تعالى ـ بين العباد، ويبدو أن الحوار الذى دار بين الضعفاء والذين استكبروا يصور حالهم جميعا فى أول عهدهم بالنار وقد ذاقوا عذابها فيفزع الضعفاء الذين أطاعوا قادتهم فى الكفر والضلال إلي أولئك القادة يطلبون منهم أن يتحملوا عنهم مقدارا ما من العذاب الذى يلاقونه فى النار وبخاصة أنهم كانوا لهم أتباعا فى الدنيا، ويجيب الذين استكبروا على طلب الضعفاء بأن الجميع فى النار، وأنهم لو استطاعوا لأغنوا عن أنفسهم، وتوجه الفريقان لخزنة جهنم طالبين منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم ليخفف عنهم يوما من العذاب، ولكن الخزنة يقررونهم أولا بإرسال الرسل إليهم ليستدرجوهم فلما أقروا بكّتوهم وقنّطوهم من رحمة الله.

والآيات الكريمة تبدأ بتصوير ما توجه به الضعفاء للذين استكبروا: (وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) والضمير فى (يتحاجون) لأهل النار جميعا تابعين ومتبوعين وإيثار المضارع لاستحضار تلك الصورة الغريبة الفظيعة صورة تلك المحاجة التى يورد فيها كل فريق

---

(١) غافر: ٤٧-٥٠.

حجته ليبطل بها حجة خصمه، لأن الحجاج "يقتضى وقوع خلاف بين المتحاجين، إذ الحجة: تأييد لدعوى؛ لدفع الشك فى صحتها "[١]، و(فى النار) ظرف مكان لوقوع المحاجة .

ولنتأمل بداية الحجاج: (فيقول الضعفاء للذين استكبروا) حيث قرن (يقول) بالفاء "لترتيب بيان المحاجة تفصيلا على الإخبار بها إجمالا، وليست زائدة كما يرى بعض النحاة، فقد رأوها ليست للعطف فحكموا بزيادتها، وهذا غير مسلم، وهى وإن لم تكن للعطف فقد لاح لنا أن لها معنيين بلاغيين، أحدهما ما أشرنا إليه من ترتيب التفصيل على الإجمال، والثانى: أن لهذه الفاء معنى آخر لو لم يكن مرادا منها إلا هو لكان كافيا فى نفى شبهة الزيادة عنها، ذلك المعنى هو: إفادة مبادرة الضعفاء إلي إلزام رؤسائهم لتحمل عبء المتبوعية والمبادرة إلي الوفاء بها ولذلك قدموا ذكرها وجعلوها توطئه للوفاء بالتزاماتها "[٢] .

والضعفاء: هم الأتباع والعوام، والذين استكبروا: سادتهم وكبرائهم، وبين الضعفاء والذين استكبروا طباق معنوى [٣] أبرز الفريقين فى صورة بارزة واضحة توحى بالنفور والازدراء إذ الاستكبار من لوازم القوة التى هى ضد الضعف وحق القوة أن تثمر تواضعا لا استكبارا، وإيثار الفعل (استكبروا) دون (الكبراء) المقابل للضعفاء: فيه دلالة على أنهم ادعوا العظمة ولم يكونوا حقيقة عظماء.

ولنتأمل محاجة الضعفاء للذين استكبروا(إنا كنا لكم تبعا) وهى جملة خبرية أريد بها إظهار الأسى والحزن من المصير المأساوى، وتبكيت الذين استكبروا المتسببين فى

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٤، صـ ١٦٠.

(٢) المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام: جـ٣،صـ٤٦٦,٤٦٧.

(٣) الطباق المعنوى هو: أن يجمع بين معنيين لا يتنافيان فى ذاتهما ولكن يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر بسببه أو لزوم أو نحوه، ينظر: بغية الإيضاح، جـ٤، صـ١١.

هذا المصير، وتقديم الجار والمجرور(لكم) على (تبعا) فيه معنى القصر، أى: تبعا لكم لا لغيركم، وهو الأنسب لمقام التبكيت والتوبيخ، "وتوكيد الخبر والتعبير بالمصدر(تبعا) للمبالغة فى إثبات التبعية وكمال الإخلاص فيها فى الدنيا، وفى ذلك إلزام للذين استكبروا ليحملوا عن الضعفاء نصيبا من العذاب "[١] .

والاستفهام (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) "من باب التبكيت لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم "[٢] وأوثر الاستفهام بـ(هل) لتحقق الإنكار الذى جعلوه توطئة للعتاب والتبكيت والتوبيخ وإظهار عجز الذين استكبروا عن دفع العذاب، "وإيثار اسمية الجملة (أنتم) واسمية الخبر (مغنون) ترجمة عما فى أنفسهم من رؤسائهم بمقتضى متبوعيتهم لهم فى الدنيا ينبغى أن يتحملوا عنهم ما يخفف عنهم العذاب تحملا مستمرا لا انقطاع فيه، وتنكير (نصيبا) يحتمل أن يكون للتعظيم، أى: نصيبا كبيرا، وأن يكون للتحقير، أى: أىَّ نصيب، و(من النار) إيجاز بحذف المضاف، والمعنى: من عذاب النار "[٣] .

ومقالة الضعفاء تحمل لوما وتوبيخا لزعمائهم، كأنهم يقولون لهم أظهروا مكانتكم التى كنتم تدَّعونها وتغروننا بها، واحملوا عنا قدرا من العذاب، وقد حوت مقالة الضعفاء جملة خبرية (إنا كنا لكم تبعا) وجملة إنشائية: (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار)، وتقديم الجملة الخبرية على الطلبية يوحى "بمبادرة الضعفاء إلي إلزام رؤسائهم بتحمل عبء المتبوعة والمبادرة إلي الوفاء بها، ولذلك قدموا ذكرها وجعلوها توطئه للوفاء

---

(١) المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام: جـ٣، صـ٤٦٧.

(٢) الزمخشرى: الكشاف: جـ٢، صـ٥٤٩.

(٣) المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام: جـ٣، صـ٤٦٧.

بالتزاماتها "[١] وهذا من مسوغات الدعوى قبل سوقها حتى تكون من المسلمات، فبما أنهم استتبعوهم فليتحملوا عبء المتبوعة.

ولنقف مع ما أجاب به الذين استكبروا على حجة الضعفاء: (إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد)، وجواب استفهام الضعفاء يكون بـ(نعم) أو (لا) ولكن الذين استكبروا عدلوا عن الجواب الطبيعي إلي هاتين العبارتين (إنا كل فيها) و(إن الله قد حكم بين العباد)، والعبارة الأولى تفيد الإخبار بأن الفريقين فى النار، وهذا المعنى غير مقصود لذاته وإنما يفيد تحسر الذين استكبروا وندمهم على ما آل إليه أمرهم ويفيد أيضا الإنكار على الضعفاء والسخرية من طلبهم وكأنهم يقولون لهم: نحن وأنتم فى النار فكيف نغنى عنكم إذ لو كان لهم نفع لنفعوا أنفسهم، "وتأكيد الكلام بـ(إن) للاهتمام بتحقيقه، أو لتنزيل من طالبوهم بالإغناء عنهم من عذاب النار- مع مشاهدتهم أنهم فى العذاب مثلهم - منزلة من يحسبهم غير واقعين فى النار، وفى هذا التنزيل ضرب من التوبيخ يقولون: ألستم ترونا فى النار مثلكم؟ فكيف نغنى عنكم؟.....، وجملة: (إن الله قد حكم بين العباد) تتنزل منزلة بدل الاشتمال من جملة(إنا كل فيها) فكلتا الجملتين جواب لهم مؤيس من حصول التخفيف عنهم .....، وفى هذه الآية عبرة لزعماء الأمم وقادتهم أن يحذروا الارتماء بأنفسهم فى مهاوى الخسران فيوقعوا المقتدين بهم فى تلك المهاوى"[٢]

ولما يئس أهل النار من أن ينصر بعضهم بعضا توجهوا إلي الملائكة ليشفعوا لهم عند الله: (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) وقد أسند القول إلي الذين فى النار، وهم الضعفاء والذين استكبروا، وتعريفهم بالاسم الموصول فيه مزيد ذم لهم وتنبيه على خطأهم، وخزنة جهنم هم القوَّام بتعذيب أهلها، وكان

---

(١) المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام: جـ٣، صـ٤٦٦.

(٢) التحرير والتنوير: جـ٢٤، صـ١٦٢، ١٦٣.

الظاهر أن يقال: وقال الذين فى النار لخزنتها بالضمير العائد على النار لكن وضع الظاهر موضع الضمير؛ للتهويل والتفظيع، فجهنم أخص من النار بحسب الظاهر لإطلاقها على ما فى الدنيا، يقول الزمخشرى: " فإن قلت: هلا قيل: الذين فى النار لخزنتها؟ قلت: لأن فى ذكرجهنم تهويلا وتفظيعا....."[١] ويعلق ابن المنير قائلا: " والتفخيم فيه من وجهين، أحدهما: وضع الظاهر موضع الضمير، وهو الذى أشار إليه، والثانى: ذكره وهو شىء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه، لأن جهنم أفظع من النار، إذ النار مطبقة وجهنم أشدها "[٢].

والقول الذى توجه به أهل النار إلي الخزنة هو : (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) أى: يخفف عنا ولو زمنا قليلا كى نلتقط أنفاسنا ونسترح ولو زمنا يسيرا، والأمر فيه لتصوير حال المتكلمين والدلالة على ما هم فيه من الحيرة والتخبط، فأصحاب النار يعلمون يقينا أن تخفيف العذاب محرم عليهم ولكنهم لفرط ما هم فيه من هول وعذاب كأنهم قد فقدوا عقولهم فصاروا يطلبون ما لا سبيل إلي تحقيقه وإنما توجهوا إلي الملائكة لأنهم ظنوهم أرجى للاستجابة، "وفى إضافة (رب) إلي ضمير المخاطبين ضرب من الإغراء بالدعاء، أى: لأنكم أقرب إلي استجابته لكم "[٣]

وقد صدر جواب الملائكة بهذا الاستفهام: (قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) وهو استفهام تقرير وإلزام، تقرر الملائكة فيه أهل النار بأن رسلهم الذين بعثهم الله فيهم بلغوهم ما أنزل الله إليهم وأتوهم بالمعجزات الدالة ـ يقينا ـ على صدقهم فيما بعثوا فيه ويضاف إلي التقرير الملزم لهم بالحجة من المعانى الثانية: التبكيت والتيئيس من رحمة

---

(١) الكشاف: جـ٤، صـ١٧١.

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف: جـ٤، صـ١٧١.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٢٤، صـ١٦٤.

الله ثم الاستدراج يقول ابن عاشور: "وجواب خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريرى المراد به: إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتبعوا الرسل حتى وقعوا فى هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه فى حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب وهو كلام جامع يتضمن التوبيخ والتنديم والتحسر وبيان سبب تجنب الدعاء لهم وتذكيرهم بأن الرسل كانت تحذرهم من الخلود فى العذاب"(١).

وفصل الكلام المحكى عن الملائكة(قالوا أولم تك .....) عما قبلها،لأنها استئناف بيانى نزِّلت فيه هذه الجملة منزلة جواب عن سؤال نشأ عن قول أهل النار، حاصله: ماذا قالت خزنة النار ردا عليهم؟ فكان الجواب: (قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) فبين الجملتين شبه كمال اتصال، وفى تقديم (تأتيكم) على الفاعل (رسلكم)، وإيثار الجملة الفعلية على الجملة الاسمية حيث كان يمكن أن يقال: (رسلكم تأتيكم) ولأهمية الإتيان؛ لأنه محط الإلزام، وإيثار المضارع (تأتيكم): فيه استحضار لصورة الإتيان وكأنها تجرى أمام أعينهم ساعة الحوار مبالغة فى توكيد التقرير والإلزام، كما أن فى ذكر المفعول وإيقاع الفعل عليه (تأتيكم) وإضافة (رسل) إلى ضمير المخاطبين (رسلكم) ترشيحا للتقرير والإلزام وما يتولد عنهما من التبكيت والتقنيط، وجواب أهل النارعلى تقرير الملائكة كان بالإقرار:(قالوا بلى) وفصلت هذه الجملة عن سابقتها للاستئناف البيانى، و(بلى) للايجاب بعد النفى، أى: بلى أتوا بها فكذبناهم، وهو إقرار الخاضع الذليل الذى يبحث عن مخرج من شدائد الجحيم.(٢)

وسؤال خزنة النار لم يقف عند حد التقرير والإلزام والتبكيت والتيئيس بل تضمن معنى آخر هو: استدراجهم إلى الاعتراف مع ما رتبه عليه الملائكة من المبالغة فى

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٤، صـ١٦٥.

(٢) ينظر: التفسير البلاغ للاستفهام: جـ٣، صـ٤٧٠.

التيئيس كما ظهر فى ردهم الأخير على أهل النار: (قالوا فادعوا) وفصلت الجملة عن سابقتها لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال، والفاء فى (فادعوا) فصيحة أفصحت عن شرط مقدر، أى: إذا كان الأمر كما قلتم فادعوا ربكم أنتم، لأن الدعاء لمن يفعل فعلكم ذلك مستحيل صدوره عنا، أما الأمر(ادعوا) فليس المراد به إطماعهم فى الاجابة بل أرادوا به التهكم بهم وزياة تقنيطهم من رحمة الله ومضاعفة التبكيت والتحسير لهم، وفيه تنبيه على خطأ السائلين فى سؤالهم، وجملة (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) استئناف مسوق لتقرير معنى الكلام قبله وعدلوا عن الإضمار(دعاؤكم) إلى الإظهار(دعاء الكافرين)، لما فى وصف الكفر من تعليل خلودهم فى النار، ولو جرى النظم على أسلوب الخطاب لفات هذا المعنى، والعبارة جاءت بأسلوب القصر حيث قصر دعاء الكافرين على الكينونه فى الضلال قصر موصوف على صفة يفيد عدم استجابة الله لهم مهما دعوا وألحوا[1] .

وبعد: فقد صورت لنا الآيات حالة من أحوال تخاصم أهل النار حيث يتحاج الضعفاء والذين استكبروا كل فريق يريد أن يلزم الآخر بحجته فالضعفاء يحاولون أن يلزموا الذين استكبروا أن يتحملوا عنهم قسطا من العذاب وحجتهم فى ذلك أنهم كانوا تبعا للذين استكبروا فى الدنيا يطيعونهم ويأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم ويصدرون عن أمرهم ومشورتهم وتلك التبعية كانت إملاء وإجبارا من الذين استكبروا وهى تستلزم أن يتحمل القادة عبء هذه التبعية بتحمل العذاب المترتب عليها مادامت كانت تبعية ضلال وإضلال وأقل ما يجب أن يفعله القادة هو أن يتحملوا ولو شيئا يسيرا من العذاب عن متبوعيهم ليؤدُّوا ما عليهم من حقوق الاستتباع .

---

(١) ينظر: روح المعانى: جـ٢٤، صـ١١٦، التفسير البلاغى للاستفهام،جـ٣، صـ٤٧٠.

أما رد القادة على هذه الحجة فلم يكن بالإيجاب أو السلب وإنما كان تحولا إلى ما فيه تقنيط للأتباع وتيئيس لهم حيث أجابوهم بأن الجميع فى النار وأن هذا هو حكم الله فقد نال كل فريق ما قسمه الله له من العذاب فكيف يتحملون عنهم عذابا قسم لهم؟ ثم كيف يستطيعون التخفيف عنهم وهم لا يستطيعون التخفيف عن أنفسهم؟ فلو كان لهم نفع لنفعوا أنفسهم، وينتهى الحوار بين الفريقين بيأس الضعفاء من نفع الذين استكبروا ويأس الذين استكبروا من نفع أنفسهم وأتباعهم ويراودهم الأمل بنفع الملائكة فيستشفعون بهم عند ربهم، وإذ بالملائكة يستدرجونهم إلى مزيد من اليأس فيقررونهم أولا: بمجىء الرسل إليهم وعصيانهم وعندما يقرون تأتى حجة الملائكة بأنهم لا يدعون بتخفيف العذاب لمن عصوا الرسل وكذبوا بيوم القيامة، ثم تهكموا منهم ومن طلبهم مشيرين إليهم بأن يكون الدعاء من قبلهم، تبكيتا لهم وتقنيطا؛ لأن دعاء الكافرين لا قبول له ولا استجابة.

وأحداث سورة غافر تنتظم مع أحداث السور السابقة فى رباط واحد، وهو رباط التخاصم ثم إنها تتناسق معها فى الترتيب، فالطرفان الرئسيان فى هذا التخاصم هم الضعفاء والمستكبرون، وقد فوجئوا يوم القيامة بحقيقة ما أنكروه، فدار بينهم تخاصم وتنازع وحجاج، ففى سورة البقرة تبرأ المستكبرون من الضعفاء وتقطعت بينهم الأسباب، وفى سورة إبراهيم استغاث الضعفاء بالذين استكبروا، واستصرخ الفريقان بالشيطان فلم يغن بعضهم عن بعض شيئا، وفى سورة سبأ أسند الذين استضعفوا سبب عدم إيمانهم إلى الذين استكبروا، ومكرهم بهم ليلا ونهارا، وفى سورة الصافات برهن المستضعفون على إثبات التهمة للمستكبرين بأنهم كانوا يأتونهم من جهة القوة والتزيين؛ ليجبروهم على الكفر، وفى سورة (ص) يتبادلون نفى الترحيب ساعة دخولهم النار، وبعد نفى

الترحيب يتلاعنون كما جاء فى الأعراف، ثم يتحاجون، كما جاء فى غافر، فيحاول كل فريق إلزام الفريق الآخر بحجته التى يترتب عليها تحمل العذاب، أو تحمل قدر منه، وتنتهى أحداث تخاصمهم باليأس والقنوط، وهكذا نهاية الظالمين.

{ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }[1]

---

(١) الأعراف :٤٧

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختمت برسالته الرسالات، وعلى آله وأصحابه الأخيار،.....وبعد:

فقد تناول البحث فى رحلته المباركة التحليل البلاغى لما يحدث بين أهل النار يوم القيامة من تخاصم وتساؤل وتلاعن وتبرؤ...، وقد بدأ البحث بمقدمة فيها أهمية الموضوع والدافع إليه، ثم اشتمل على سبعة مباحث هى:

المبحث الأول: تبرؤ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا.

المبحث الثانى: تبادل التلاعن بين الضالين والمضلين.

المبحث الثالث: استغاثة الضعفاء بالذين استكبروا واستغاثة الفريقين بالشيطان.

المبحث الرابع: تبادل التهم بين الذين استضعفو والذين استكبروا.

المبحث الخامس: تبادل المساءلة بين الضالين والمضلين.

المبحث السادس: نفى الترحيب بين أهل النار.

المبحث السابع: تبادل الحجاج بين الضعفاء والذين استكبروا.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج .ثم أهم المراجع، والفهرس

وأما عن أهم الحقائق التى توصل إليها البحث فهى كالتالى:

ـ من أبرز ما يميز أحداث تخاصم أهل النار: الإيجاز، إذ تمتاز الآيات بشدة التركيز فى تناول الأحداث وعرضها فتأتى بأقل الكلمات لتشير بها إلى الكثير من المعانى، فتثير بذلك الوجدان وتحرك المشاعر، يقول الدكتور دراز: "قلنا إن القرآن يستثمر برفق أقل ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى، أجل تلك ظاهرة بارزة فيه كله..، فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى"[1]

---

(١) د/ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، صـ١٢١ـ١٢٤، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٩م.

ـ الألفاظ المختارة لتخاصم أهل النار شديدة الإيحاء بالغة الإثارة قوية الوقع، إما بعنفها وشدتها كالتخاصم،والتبرؤ،والتلاعن، والمساءلة، والاقتحام، والحجاج، والمكر، والصد..،وإما بدقة تصويرها لأوصاف أهل النار، فهم ظالمون ، وكافرون، وطاغون، وغاوون، ومستكبرون...، وهذه الألفاظ وغيرها كثير تعد من أبرز أدوات تصوير تخاصم أهل النار؛ لأنها لم تعد كلمات تنطق بل حقائق تنبض وصورا تعبر، وبهذا التصوير اقتحم القرآن أغوار النفس بأدق المعانى فى أخص الألفاظ، ولله درَ إمام البلاغة حيث يقول: "اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى، وضربا من العبارة هو بتأديته أقوم وهو فيه أجلى، ومأخذا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب وبالقبول أخلق وكان السمع له أدعى والنفس إليه أميل"[(١)]؛ ولذا كانت عناية القرآن باللفظة المعبرة المصورة للمعنى أكمل تصوير.

وفصاحة اللفظة القرآنية فىآيات تخاصم أهل النار وجودة تصويرها ليس فقط فيما تحمله من معانى وإيحاءات، وإنما فى ذلك مع مراعاة وضعها الموضع الملائم لنظم الكلام، لذا قال شيخ البلاغة: "وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعانى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها..."[(٢)]، ويقول الرافعى: "أى معنى أعجب من أن تتجاذبك معانى الوضع فىألفاظ القرآن الكريم فترى اللفظ قارا فى موضعه؛ لأنه الأليق فى النظم، ثم لأنه مع ذلك الأوسع فى المعنى، ومع ذلك الأقوى فى الدلالة، ومعى ذلك الأحكم فى الإبانة، ومع ذلك الأبدع فى وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية..."[(٣)] .

---

(١) عبد القاهر الجرجانى: الرسالة الشافية، صـ١٠٧.

(٢) عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، صـ٤٤.

(٣) الرافعى: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، صـ٢٤٧.

ـ جاء تخاصم أهل النار وحجاجهم متميزا فى مضمونه وقالبه التعبيرى اللافت؛ لما فيه من مراجعة ومجاذبةعلى نحو يغرى المستمع بتتبعه والوقوع تحت تأثير معين هو المغزى من عرض التخاصم؛ لأنه فى غمرة التتبع والتيقظ يُلقى إلى المستمع ما ينص على الغرض أو يشير إليه.

ـ تميزت أحداث تخاصم أهل النار باشتمالها على الوسائل القادرة على التأثير النفسى؛ لأنها مراجعة وفى كثير من أحوالها صراع يلجأ كل خصم إلى التأثير النفسى على خصمه، وقد نقل القرآن الكريم أحاسيس المتخاصمين وقدم نفسياتهم المنهارة فى غاية الدقة، وجاء ذلك فى صياغة قرآن أنزله الخبير بما يدور فى نفوس هؤلاء الفزعين الدهشين، وقد تبين من حجاج أهل النار أن توخى طرق معينة فى صياغة الحجاج، كالاستفهام، والحذف والذكر، والإظهار، والإيجاز بوجه عام له تأثير نفسى على الخصم...، هذا فضلا عن الاستئناف الذى يكثر فى آيات تخاصم أهل النار بشكل لا يخطئه أى متتبع وهذا يتناسب مع أسلوب المحاورات.

ـ لحظ أن المستضعفين مقدمون فى معظم مواقف التخاصم والحجاج، فهم الذين يبدءون بلعن المستكبرين، وهم الذين يطلبون من المستكبرين أن يتحملوا عنهم شيئا من العذاب، وهم الذين يبدءون بإلقاء التبعة على المستكبرينن وهم الذين يسائلون المستكبرين، وهم الذين يبدءون بالحجاج..، وهذا له دلالته التصويرية والبيانية؛ إذ إن تقديم المستضعفين ومبادرتهم لهذا التخاصم والحجاج فيه إشارة إلى المفاجأة التى كانت فى انتظارهم، وهى تخلى المستكبرين عنهم وتنصلهم من تبعة استتباعهم، وفيه إشارة إلى جرأة المستضعفين فى مواجهة المستكبرين، وأنها جرأة ما حدثت إلا يوم التخاصم، كما أن تقديم

المستضعفين فيه إشارة إلى مدى ندم المستضعفين وكيف أنهم سمحوا لغيرهم أن يستضعفهم ويستتبعهم ويصرف شئونهم.

ـ وظاهرة بيانية قل أن نخطأها فى آيات تخاصم أهل النار؛ وهى أن القرآن الكريم يكثر من الإتيان بالمضارع فى صورة الماضى والماضى فى صورة المضارع؛ لأسرار بلاغية يقتضيها المقام، وذلك النمط من التعبير فى أعلى درجات البلاغة؛ إذ إن عرض أحداث التخاصم بين أهل النار التى ستقع يوم القيامة فى صورة الماضى وكأنها أحداث قد وقعت وانتهت بالفعل لا يكون إلا لتأكيد كينونتها وتحقق حصولها، وتلك خصوصية اقتضاها المقام لمواجهة ظلم الظالمين وكفر الكافرين وطغيان الطاغين واستتباع المستكبرين للمستضعفين، ويضاف إلى تحقق الوقوع: إشاعة جو من التحذير والتخويف من عاقبة الكفر والاستتباع والإصرار على العناد والمكابرة.

وصيغة المضارعة أقدر الصيغ على تصوير الأحداث؛ لذا عبر بها عن الماضى فى كثير من أحداث تخاصم أهل النار؛ لأنها تنقل صورة الحدث من واقعه الذى مضى إلى مقام الحضور والمشاهدة، وهذه الظاهرة البيانية لها تأثيرها التصويرى ودورها البيانى الذى يتلاءم مع الأغراض والمعانى، يقول الزركشى: "والفائدة فى الفعل الماضى إذا أخبر به عن المستقبل الذى لم يوجد: أنه أبلغ وأعظم موقعا ؛ لتنزيله منزلة الواقع، والفائدة فى المستقبل إذا عبر به عن الماضى، لتبيين هيئة الفعل باستحضار صورته ليكون السامع كأنه شاهد"[1]

ـ من أبرز ما يميز مشاهد تخاصم أهل النار أن الحجاج فيها والخصام ليس على درجة واحدة بل يأتى فى أساليب متنوعة وصور مختلفة تختلف باختلاف المواقف والأحداث

---

(١) الزركشى: البرهان فى علوم القرآن، جـ٣، صـ٣٣٧.

فأحيانا يأتى التخاصم بينهم فى صورة التبرؤ حيث يتبرأ بعضهم من بعض، وأحيانا يشتد الخصام بينهم فيتلاعنون ويتبادلون السباب، وأحيانا يتلاومون ويستغيث بعضهم ببعض ويستصرخ بعضهم بعضاً، وأحيانا يتراجعون القول فيما بينهم فيتهم بعضهم بعضا، وأحيانا يقبل بعضهم على بعض إقبال تساؤل واتهام.

هذه هى بعض النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة، ويستطيع القارىء أن يستخلص نتائج أُخر منثورة فى ثنايا البحث لم تذكر هنا خشية الإطالة والتكرار.

والله ـ تعالى ـ أسأل أن يجعل عملى خالصا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

أهم المصادر والمراجع

ـ الإبداع البيانى فى القرآن العظيم، لمحمد على الصابونى، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.

ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ أبو السعود العمادى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

ـ أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم ـ الدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، رسالة دكتوراه مخطوطة فى كلية اللغة العربية فى القاهرة تحت رقم (٢٠٣٣) .

ـ الأطول، لعصام الدين، ط اسطنبول.

ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعى، بيروت، دار الكتاب العربى، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ.

ـ الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ـ ابن المنير الاسكندرانى، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.

ـ الإيضاح شرح تلخيص المفتاح ـ الخطيب القزوينى، تعليق/ عبد المتعال الصعيدى، طبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٣٩٢هـ .

ـ البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسى، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

ـ البرهان فى علوم القرآن ـ بدر الدين الزركشى ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م.

ـ بغية الإيضاح، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدى، طبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٣٩٢هـ.

ـ التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم، للدكتور/ عبد العظيم المطعنى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط أولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

ـ التفسير الكبير للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى، بيروت، دار إحياء التراث العربى.

ـ التحرير والتنوير ـ سماحة الشيخ/ الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.

ـ الجامع الصحيح، لأبى عيسى الترمذى، ت أحمد محمد شاكر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط أولى، ١٤٠٨هـ.

ـ الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

ـ الجنى الدانى فى حروف المعانى ـ الحسن بن القاسم المرادى،تحقيق فخر الدين قباوة، والأستاذ/ محمد نديم فاضل، المطبعة الصليبية.

ـ دراسات جديدة فى إعجاز القرآن، للدكتور عبد العظيم المطعنى، مكتبة وهبة، القاهرة.

ـ درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافى ط دار الآفاق الجديدة، بيروت.

ـ دلالات التراكيب ـ الدكتور/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية،مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

ـ دلائل الإعجاز ـ الشيخ عبد القاهر الجرجانى، تحقيق/ محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، وآخر: تحقيق/ محمود شاكر، طبعة الخانجى، القاهرة.

ـ الرسالة الشافية، لعبد القاهر الجرجانى، (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) ، ط/ دار المعارف.

- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - السيد محمود الألوسى البغدادى، دار الفكر بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

- السيرة النبوية، لأبى محمد عبد الملك بن هشام، تعليق طه عبد الرءوف، مكتبة الرياض الحديثة.

- شرح بن عقيل على ألفية بن مالك، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة العشرون، دار التراث، القاهرة

- عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح - بهاء الدين السبكى، (ضمن شروح التلخيص)، طبعة دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

- علم البديع، للدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، بدون ناشر.

- علم المعانى - الدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، بدون ناشر.

- علم المعانى - الدكتور/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

- القاموس المحيط - محمد بن يعقوب الفيروزابادى، دار العلم للجميع، بيروت بدون تاريخ.

- الكشاف - أبو القاسم جار الله الزمخشرى، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.

- لسان العرب - جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت.

- محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمى، تعليق/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى، القاهرة.

ـ المختصر على التلخيص ـ سعد الدين التفتازانى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

ـ معجم البلاغة العربية ـ الدكتور/ بدوى طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

ـ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ـ ابن هشام الأنصارى، تحقيق/ مازن المبارك، د/ محمد على حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.

ـ من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ـ الدكتور/ محمد الأمين الخضرى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

ـ مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح ـ ابن يعقوب المغربى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

ـ النبأ العظيم، للدكتور/ محمد عبد الله دراز، القاهرة ، مطبعة السعادة، ١٩٦٩م.